آن ميثو

عاطفة من ورق

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية
A DISTANT SOUND OF THUNDER

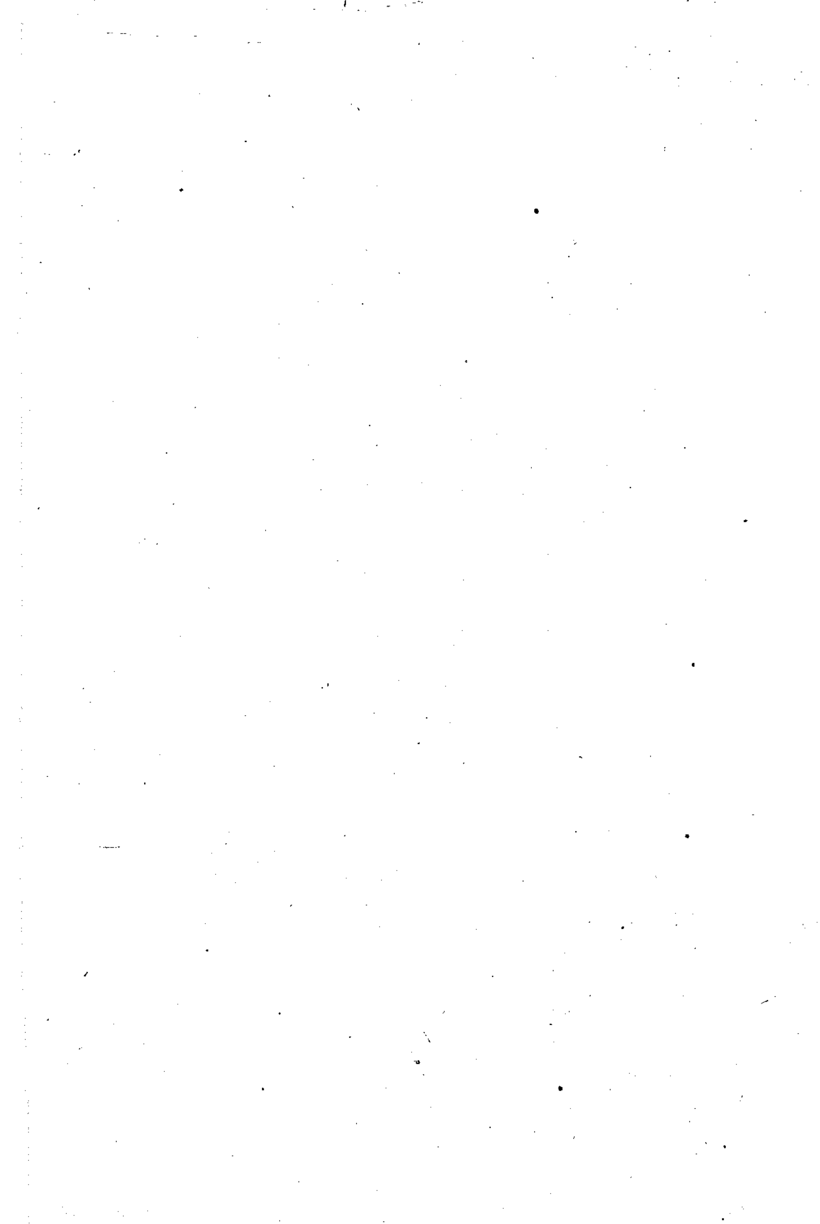


روايات عبير

منذ صدور هذه الروايات في العالم العربي، بعدما طالعها القراء عبر جهات الأرض الأربع، ونحن نتلقى التهاني والتشجيع ورسائل الشذى الطيبة من كل مكان.

لأن هذه الروايات بطاقات سفر ذهاباً فقط الى عالم النقاء العاطفي وصفاء الأحلام، ولأنها لمسة نسيم بالغة الرقة، ورفيقة المطالعة المفضلة لدى الملايين في العالم كله.

اربطوا حزام الأمان فالرحلة الى عالم الحب تبدأ في الصفحة التالية!



١ ـ حطام امرأة

أسدل الغسق عباءته على الجزيرة، وهبّت نسمة باردة، فتوارى قرص الشمس وراء الأشجار المحيطة بالفيللا. وراحت أصابع النسمات تخفّف من الحرارة التي لفحت جبين ربيكا وهي تغادر غرفة مريضتها وتتنفّس الصعداء مقفلة الباب وراءها. تاقت في تلك اللحظة للاستمتاع بحمّام. الوقت أصبح ملكاً لها بعد أن أخلدت مريضتها آديل إلى النوم. وعندما بلغت غرفتها، تخلّصت من زي التمريض، وألقت بجسمها تحت المياه الباردة.

وفجأة توقفت عن مواصلة الاستحمام. شعرت بضيق لما يحدث، فالخدم في إجازة هذه الليلة...وهي وحدها في الفيللا مع آديل التي استغرقت في النوم الآن. وما أثار ضيقها الرنين المتواصل لجرس الباب! تنهّدت في يأس، وراودها الأمل في انصراف الزائر عندما يكتشف أن الأنوار غير مضاءة، ولم تستطع أن تتخيّل من يكون...فإن آديل تعرف قليلاً من الأصدقاء، وليست هذه الليلة التي يأتي فيها الطبيب عادة. وعندما رنّ الجرس مرّة ثانية، أسرعت بارتداء ثيابها، وكان شعرها مشعثاً وهي تغادر الحمّام نافدة الصبر. وعندما بلغت الباب الأمامي، وفتحته قليلاً، وفي الضوء الخافت، رأت رجلاً طويلاً يقف في الخارج، فتمتمت تسأله:

«ماذا تريد؟»

ولكنه لدهشتها دفع الباب برقّة وحزم واضح، ثم دخل حتى وقف في الصالة. فلم تملك إلاّ أن تصيح به في غضب:

«إنتظر قليلاً من فضلك».

«عفواً يا آنسة، ظننتك خادمة آديل. أقدّم لك اعتذاري لازعاجك».

وحاولت ربيكا السيطرة على الدماء الحارة التي سرت في أوصالها عندما تبيّنت أنها ترتدي ثوباً خفيفاً يكشف عن جسمها، وأن الرجل يحملق فيها بعينيه السوداوين. ولكنها وجدت فيه شخصاً جذاباً لم يسبق لها أن التقت بمثله من قبل، وعندما أفاقت لنفسها، أخبرته قائلة:

«آنسة سانت كلاود أخلدت للنوم. وأنا...أنا ممرضتها».

«آه...كان خيراً لي أن أدرك ذلك، ولكن ماذا كنت أفعل إزاء تأخر وصول طائرتي. في أية حال، لن أزعجها الآن. هل لك أن تخبريها بأنني جئت للسؤال عنها؟».

«أقول لها من الذي سأل عنها، يا سيدي؟»

«فقط أخبريها بأن سانت كلير جاء يسأل عنها، وستعرف من هو، وأنت يا آنسة ما اسمك؟»

«الممرضة ليندسي».

«هل التحقت بالعمل هنا منذ فترة طويلة؟»

أجابت ربيكا وهي تتمنّى أن يرحل عنها سريعاً:

«منذ عامين يا سيدي».

«سنتين...إنها فترة طويلة يا آنسة. أظن أن شقيقة زوجتي مريضة، ومن الصعب التفاهم معها. العمل هنا في فيجي ممل ألا تشعرين بالوحدة، أم أنّ لديك أصدقاء؟»

وشعرت برغبة في الاحتجاج على ما وراء سؤاله من معان، ولما كانت لا تعرف تماماً مدى علاقته بأديل، اضطرت لمعاملته بأدب، ولذلك قالت له:

«أنا...أنا سعيدة تماماً هنا، وشكراً لك يا سيدي».

«أخشى أن أكون سبّبت لك ضيقاً يا آنسة، ولكن يجب ألا يعزى فضولي إلى خشونة في مسلكي، إنني أعتذر لك ثانية».

قالت ربيكا وهي ترتجف:

«ليس هذا ضرور ياً يا سيدي».

«أنت ترتجفين من البرد يا آنسة. من الأفضل إذن أن أؤجل فضـولي إلى يوم آخر..وداعاً!»

تورّدت وجنتاها. كان من الممكن أن تخبره بأنها لا ترتجف من البرد. وأن ثمّة مشاعر مختلفة أشاعت الرجفة في أوصالها. ولكنها لم تتفوّه بشيء. وبعـد قليل انصرف وعلى شفتيه ابتسامة شاحبة!

انتظرت ربيكا حتى ابتعد قليلاً. فأغلقت الباب وراءه. وسمعت محرك السيارة يدور. ولم تمض لحظات حتى كان صوت المحرك يتلاشى شيئاً فشيئاً كلّما ابتعدت السيارة عن البيت. وأخيراً شعرت بالارتياح وإن كانت ساقاها لم تقو يا على حملها أثناء عودتها إلى غرفة نومها.

كانت آديل سانت كلاود. سيدة في أواخر الثلاثينات. ولكن منظرها يبدو للعيان أكبر من حقيقة عمرها. ولدت وهي تشكو من ألم بالقلب. أعجزها عن مواجهة الحياة. وامتدّ عجزها إلى تفكيرها. وغادرت بر يطانيا منذ عشر سنوات مضت بحثاً عن الجو الدافئ الذي يتميّز به جنوب المحيط الهادي. واصطحبت معها خادماً عجوزاً كانت تقوم بخدمتها وتمريضها. وكانت أسرة آديل من أصحاب مصانع الملابس ومشهود لهم بالثراء. و ينتسبـون إلى سلالـة فرنسية. و يقيمون في مقاطعة سمرست. ولم تفكر يوماً في السؤال عن أي دخل تستحقه. وربما يكون ضعفها هو الملوم في عدم السؤال. وربما يكون السبب موقفها من شقيقاتها. وفي أية حال. فإنها لم تضيّع الوقت في أن تستأنف حياة جديدة في فيجي عقب وفاة والدها. ولسوء الحظ ماتت ممرضتها العجـوز بعـد ثماني سنوات...فاضطرت للاعلان عن طلب ممرضـة بدلاً منهـا. وجـاءت ربيكا لتمر يضها. والآن. عندما تقلّب ربيكا الأمر فإنهـا لتتسـاءل كيف واتتهـا الشجاعة في أن تقطع هذه المسافة الطو يلة وحدها. إذا لم تكن ترغب في الهروب

من موقف غير سعيد!

وفي اليوم التالي لزيارة الغريب، توجّهت ربيكا في الصباح الباكر لتمارس رياضة السباحة...وكانت تفضل هذا الوقت من اليوم، فتلقي بجسمها في أحضان المياه المتلاطمة حتى تستطيع مجابهة مطالب السيدة العليلة التعسة. وكانت ترتدي ثوب البحر الذي يكشف عن بشرتها التي لوحتها أشعة الشمس...وشبابها ونضارتها، ولم يراودها الخوف من فضول الناس...لأن الشاطىء كان خاصاً بالفيللا، ولما كانت آديل لا تستفيد منه لعجزها، فإن ربيكا كانت تعتبره شاطئها الخاص.

وعندما عادت إلى الفيللا، تناولت طعام الافطار مع روزا مدبرة البيت وهي من أهالي فيجي، ثم أعدّت صينية الافطار لآديل، وحملتها إليها، فوجدتها مستيقظة تستند بظهرها إلى وسائد حريرية، وبدا الشحوب والاعياء على وجهها. وأشفقت ربيكا لمنظرها، بالرغم من معرفتها بأن آديل لا تقدّر هذه المشاعر حق قدرها.

قالت ربيكا وهي تضع الصينية فوق ركبتي آديل:

«صباح الخير يا آنسة سانت كلاود، هل نعمت بليلة هادئة؟»

فنظرت إلى ممرضتها نظرة ازدراء وهي تقول:

«لا...كانت ليلة سيئة. الحبوب التي وصفها دكتور مانسون لم تكن بالجودة التي كانت عليها الحبوب السابقة. تقلّبت في الفراش وقتاً طويلاً قبل أن أستغرق في النوم».

«تقولين إنك تقلبت في الفراش وقتاً طويلاً؟ إنك تثيرين دهشتي. لقد ظننت أنك استغرقت في النوم سريعاً، إذن سمعت الجرس وهو يدق، أليس كذلك؟»

«جرس؟ أي جرس؟ جرس التليفون؟»

«أقصد جرس الباب».

«هل جاءنا زائر ليلة أمس؟»

«أجل بعد أن أويت إلى فراشك!»
«لا بدّ أن إغفاءة قصيرة قد داهمتني لحظة رنّ الجرس. أخبريني من كان الزائر؟
هل هو الدكتور مانسون، أو بلاكويل المسن؟»
«ليس واحداً منهما، وإنما هو رجل اسمه السيد سانت كلير. هل يعني هذا الاسم
شيئاً بالنسبة إليك؟»
«بيير سانت كلير؟»
«لم يخبرني باسمه الأول يا آنسة سانت كلاود!»
وفجأة أدركت ربيكا التشابه في لقب الأسرة. وتنهّدت أديل وهزت رأسها
ثم قالت:
«إنه بيير أعرف أن عمله يغطي العالم كله. ولا عجب أن يكون لديه عمل
هنا في سوفا. لماذا لم تخبريني بقدومه؟»
«أنت تعرفين أنّ تعليمات دكتور مانسون واضحة تماماً. يجب ألاّ يزعجك أحد».
«كيف واتتك الجرأة على صرف صديق تكبّد مشقة الحضور إلى هنا لرؤيتي؟»
«لم أصرفه...انصرف برغبته عندما شعر بأنّ الوقت غير مناسب».
تململت أديل في مكانها حتى كادت تطيح بالصينية. وسألتها:
«هل قلت إنه سيعود؟»
«أجل...على الأقل...أظن!»
توقّفت قليلاً عن مواصلة الحديث، وهي تتذكّر جانباً من الحوار الذي دار بينها
وبينه، ثم استطردت قائلة:
«إنني على يقين من أنه سيعود!»
كسا الغضب وجه أديل، وقالت:
«فتاة حمقاء! ألا تفعلين شيئاً صحيحاً؟ أليس لديك من الادراك ما يجعلك تعرفين
متى تسمحين للزائر بالدخول، ومتى تصرفينه؟ ألـم يساعدك ذكاؤك على أن
تدركي بأن بيير سانت كلير ليس زائراً عادياً؟»

واجهت ربيكا غضب آديل في صمت، وأدركت أن المناقشة معها غير مجدية، وبذلت جهدها في أن تسير الأمور وكأن شيئاً لم يحدث. وتقدّمت نحوها وصبّت لها فنجاناً من القهوة بدون أن تتفوه بكلمة. ورشفت آديل رشفة من الفنجان ثم سألتها بنبرة هادئة:

«من كنت تظنّين هذا الرجل يا ربيكا؟»

تنهّدت ربيكا. فقد كانت تأمل أن تضع حداً لموضوع بيير سانت كلير في الوقت الحاضر، ولكنها كانت تعرف طبيعة آديل، إذ تتعمّد دائماً المبالغة في الموقف. فردّت:

«إنه...إنه شخص جذّاب».

«إنه رجل واسع الثراء يا ربيكا. يمتلك عدّة شركات للانشاءات في فرنسا و اسبانيا».

ابتسمت ربيكا وقالت:

«أحقاً ما تقولين؟ هل عزمت على مغادرة فراشك هذا الصباح؟ هل أعدّ لك الحمام؟»

«بحق السماء، كفّي عن تصرفاتك المتعجلة يا ربيكا، كل ما سألتك عنه هو رأيك في سانت كلير؟»

«إنني لم أتعرّف عليه جيداً حتى أكوّن رأياً عنه».

لاعليك يا ربيكا. لا أظن أنه تغيرّ كثيراً طوال السنين. كان دائماً شيطاناً أنيقاً»

«لا شأن لي بجاذبية زوارك. هل من خدمة أخرى أقدّمها لك الآن يا آنسة سانت كلاود؟»

وأزاحت الصينية بعيداً عنها، ثم استطردت تقول بنبرة اختفت منها العصبية:

«بالطبع سأغادر الفراش هذا الصباح، ولا بدّ أن أبدو في أجمل صوري، إنني واثقة بأن سانت كلير سيقوم بزيارتي مرة ثانية».

وبعد ساعة، قادت ربيكا المقعد المتحرك الذي تجلس عليه آديل حتى بلغت الحديقة المحيطة بالفيللا، وعندئذ تناهى إلى سمعها صوت محرك سيارة، وتطلعت آديل إلى ممرضتها، وتألقت عيناها وهي تقول:

«إنه سانت كلير. إدفعي المقعد بسرعة إلى موقف السيارة».

كان بيير يرتدي سروالاً رمادي اللون...وقميصاً بنياً مفتوحاً عند عنقه وبدت على وجهه مسحة من الكبرياء...وتبرّمت ربيكا عندما شعرت بنبض قلبها يدقّ سريعاً، وتساءلت: لم هذا الاضطراب؟ إنه ليس أول إنسان جذّاب تلتقين به...

ودبّت الحيوية في أوصال آديل عندما اقتربا منه، وتشابكت أيديها وهي تصيح:

«بيير! بيير سانت كلير! بحق السماء. ما الذي أتى بك؟»

أطبق بيديه القويتين على يديها النحيلتين، وقال لها بابتسامة دافئة:

«ألا تظنين أنك سبب كاف يدعوني للمجيء؟»

وتوقف عن الحديث وهو يتطلّع إلى القوام النحيل الذي وقف ممشوقاً وراء المقعد المتحرك، ثم استطرد يقول:

«ألم تخبرك الممرضة ليندسي بأنني جئت للسؤال عنك ليلة أمس؟»

«بالطبع أخبرتني...وانزعجت لأنها لم تنبئني بوصولك في حينه...الأطباء حمقى...إن إيقاظي ولو لمرة واحدة، لن يؤذيني».

«عزيزتي...يجب أن تطيعي أوامر الأطباء، وإلاّ فإننا سنكون في غنى عن استشارتُهم...ألا توافقينني يا ليندسي على رأيي؟»

أجابت ربيكا وأصابعها تتشبث بعقود المقعد المتحرك:

«طبعاً أوافقك».

تطلّعت آديل إليها نافذة الصبر، وقالت:

«من الطبيعي أن تقولي ذلك».

ثم حولت بصرها إلى بيير، وأردفت قائلة:

«حقيقة...ما الذي أتى بك إلى فيجي؟ هل الأمور تسير سيراً طبيعياً في الوطن؟»

«إنها تجري في مجراها الطبيعي».

وأخذ يجيل بصره باهتمام زائد في الحديقة الشاسعة التي ازدهرت بأشعة الشمس، ثم قال:

«إن ما جاء بي هو المشروعات التي أزمع تنفيذها على طول الساحل في ياساواس. هناك مشروع لاقامة فنادق...وقد جئت إلى هنا لعمل مسح شامل للمشروع!»

سألت آديل:

«آه...هل تنوي المكوث هنا فترة طويلة؟»

«أسبوعين...وربما ثلاثة أسابيع. إنني أقيم هنا في سوفا، ولكنني أنوي الانتقال إلى لاوتوكا».

«هيا بنا نتوجه إلى المنزل. إن روزا ستقدّم لنا القهوة. بالطبع ستتناول طعام الغداء معنا».

وتطلع بيير إلى ربيكا مرة أخرى، ولكنها تحاشت نظرته، فحول بصره إلى آديل وقال:

«أحب أن أتناول طعام الغداء».

وفي طريقهم صوب الفيللا، أخذ مقود المقعد من ربيكا...التي وجدت نفسها تسير إلى جواره وهو يتطلع إليها ثانية، ويقول لها:

«إنه صباح جميل...أليس كذلك يا آنسة؟»

حاولت ربيكا أن ترسم ظل ابتسامة على شفتيها، وهي تقول:

«جميل...ولكن أغلب فترات الصباح في فيجي جميلة».

«ما يثير حيرتي أن فتاة مثلك ترضى بوظيفة من هذا النوع...إنني أعتذر لك يا آديل، ولكن من المعتاد أن تقبل سيدات متقدمات في العمر مهام

التمريض...أليس كذلك؟»

رأت ربيكا علامات الضيق تكسو وجه آديل وهي تصيح قائلة:

«بحق السماء...لاتقل هذا يا بيير. إنك تثير في نفسها شعوراً بعدم الرضى وإني أؤكد لك أنها راضية بما تؤديه من خدمات».

وفي ذلك الوقت، انتاب ربيكا ارتباك واضح...ولكن بيير أضاف يقول بسخرية:

«إنني متأكد أن ليندسي لن تتأثر بما أقوله. إنها تثير إعجابي بكونها فتاة راضية النفس».

هدأت ثورة آديل...وتطلّعت إلى ربيكا وقالت بسخرية:

«وأنت ستتعرفين على بيير».

فشعرت ربيكا أن موقفها ازداد سوءاً عن ذي قبل، وبدأت تشعر بالارتياح عندما بلغوا المنحدر المؤدي إلى الفيللا...وعندما وقفت ربيكا في الصالة، قالت لها آديل:

«أخبري روزا بأن تحضر القهوة إلى غرفة الجلوس، وقولي لها إن لدينا ضيفاً سيتناول طعام الغداء معنا».

«سأخبرها يا آنسة كلاود».

وكانت الرغبة تحدوها في الفرار من الصالة...ليس من سخرية آديل وحدها، وإنما أيضاً من علامات المزاح التي كانت تتراقص في عيني بيير.

وعندما غادرت المكان...أمضت بقية فترة الصباح في كتابة التقرير الطبي اليومي، ومراجعة محتويات خزانة الأدوية الخاصة بآديل. وأعادت ترتيب غرفة نومها، وغسلت بعض ملابسها الشخصية، ووضعت لمسة من أحمر الشفاه، ومشطت شعرها وعقصته خلف رأسها، وتساءلت في يأس مرير عما إذا كانت ستتناول طعام الغداء مع آديل وضيفها في هذا اليوم، فقد كان من عادتها أن تتناول الطعام مع آديل، ولكن لا بدّ أنها اليوم ستغفل دعوتها حتى تنفرد

بصحبة بيير. وراود ربيكا الأمل في أن تغفل آديل ذلك حتى لا تتعرّض لسيل من شكواها، ولنبرة سخريتها.

ونحت أفكارها جانباً...وعبرت غرفة النوم. وهبطت إلى الصالة، فوجدت باب غرفة الجلوس مفتوحاً. واضطرت إلى أن تنظر لتتأكد من وجود آديل. فوجدتها تجلس على المقعد. تحتسي كوباً من الشراب المنعش المثلج. بينما كان بيير واقفاً أمام المدفأة، وقد استند بيده على الرف. ورفع بيده الأخرى كأساً من الشراب. وتطلّعت آديل إليها عندما بدا التردد عليها وهي تقف بالباب. وقالت لها:

«ادخلي...ادخلي...يا فتاة. هل أعد طعام الغداء؟»

«أنا...أنا لا أعرف...كنت أريد فقط أن أسأل عما إذا كنت في حاجة إلى شيء ما. وحيث أن السيد سانت كلير سيشاركك الطعام اليوم. فإنني...إنني سأتناول الطعام في غرفتي».

«حسناً يا ربيكا، يمكنك أن تخبري روزا بأننا على استعداد لتناول الطعام عندما...».

ولم تواصل آديل الحديث إذ قاطعها بيير قائلاً:

«أوه...ولكنني بالتأكيد أرحب بأن تشاركنا الممرضة ليندسي الغداء إذا كانت معتادة على أن تتناول الطعام معك. إن حديثنا لا يتناول الأسرار. ولدينا متسع من الوقت نتحدث فيه عن شؤوننا الخاصة...أليس كذلك يا عزيزتي؟»

سألتها آديل:

«لماذا لا ترغبين في مشاركتنا طعام الغداء؟»

«إن دوافعي بسيطة للغاية...من الطبيعي أنك وضيفك تفضلان أن تكونا وحدكما...»

«لماذا تتصوّرين ذلك يا ربيكا؟ هل تفترضين أنني و بيير...يكنّ أحدنا للآخر عاطفة قديمة؟ هل تظنّين أننا كنّا عاشقين يوماً ما؟»

«سأذهب إلى روزا، وأخبرها بأنكما على استعداد لتناول الطعام».

«لماذا تصرّين على تجاهل أسئلتي يا ربيكا؟ هل أنا طفلة تتدلّل بدون أن تناقش؟»

تنهدت ربيكا...وألقت نظرة على سانت كلير. ولكنها أشاحت بوجهها حتى لا ترى نظرة السخرية في عينيه. وكان من الواضح أنه لا يرغب في مساعدتها. وأخيراً قالت:

«أظن أنه من المستحسن أن أواصل عملي. إنني آسفة إذا كنت تشعرين بأنني قد قطعت عليك خلوتك عن عمد. ولكن ليس من واجباتي أن أشركك معي في فترات راحتي».

حملقت آديل في ربيكا غير مصدقة، وقالت:

«يا لك من فتاة وقحة!»

وشعرت ربيكا بأنها لم يسبق أن أجابت على آديل بمثل هذا الأسلوب من قبل.

وهنا تمتم بيير بهدوء:

«مهلاً يا آديل...ربما كانت الآنسة ليندسي على حق. ليس من المحتم أن تمضي كل وقتها معنا...أقصد معك. إن لها مشاعرها هي أيضاً. وأظن أنك أثقلت عليها فترة طويلة!»

وفي هذه اللحظة، تطلعت ربيكا إليه. وشعرت بارتياح لتدخله، وبأن استعماله لكلمة أثقلت قد خفّف من حدّة الموقف. كما أنّ هذا التدخل أتاح الفرصة لآديل أن تخرج من المأزق بدون أن تريق ماء وجهها، فتقبلت كلامه وقالت:

«حسناً...يمكنك أن تذهبي يا ربيكا».

غادرت ربيكا الغرفة، وأخبرت روزا بأن تعدّ طعام الغداء، ثم حملت صينيتها إلى غرفتها، وعندما انتهت آديل و بيير من الطعام، ظهرت مشكلة أخرى. كانت آديل معتادة على النوم ساعة بعد الغداء، ولكن كيف تحملها

ربيكا على مثل هذا الأمر في هذا اليوم؟ وتساءلت هل تتناسى تعلياتها؟ ولم ينقذها من حرج الموقف سوى صوت محرك السيارة. فأسرعت إلى النافذة ورأت السيارة الزرقاء تنطلق إلى عرض الطريق.

تنفست ربيكا الصعداء، فالآن أصبح في وسعها حمل آديل على النوم بسهولة. ولكنها تبيّنت أن الزائر قد أثار آديل عاطفياً...وجسدياً...ولذلك قابلتها بثورة عندما توجهت إليها قائلة:

«كيف تجرؤين على الحديث معي بهذا الأسلوب أمام الضيف؟ لا تظني أنني قد نسيت الاهانة لمجرد أن بيير قد صنع منك بطلة...إن فتاة وقحة مثلك، تجهل من يكون أبوها...»

صمتت آديل بينما أخذت ربيكا تتحكم في مشاعر الغضب التي اعتلت في صدرها. ولكنها لن تلوم أحداً سوى نفسها... ففي ذات يوم، باحت لآديل بسرها في لحظة عاطفية، وقالت لها:

«إن أبي قتل وهو في طريقه إلى الكنيسة للزواج من أمي».

استطردت آديل تسألها:

«إذا كان أبواك مثاليين في الفضيلة...إذاً ما الذي أتى بك إلى هنا؟»

أجابت ربيكا:

«كانا يتمتعان بالشباب. ويحب كلاهما الآخر. لا أتوقع منك أن تدركي ذلك. قاست أمي الحسرة عندما فقدته. وجدتي لم تفهم مشاعر أبي. وكانت تتحين كل فرصة لكي تهزأ بها...ولم ينقذها من عذابها سوى موتها في حادث تصادم القطار الذي كانت تستقله».

ويبدو أن آديل شعرت بأن شرودها قد جاوز الحد، فأسرعت تقول:

«أليس جميلاً أن يتناول رجل طعام الغداء معنا؟ لا نعرف أحداً هنا سوى الطبيب و بلاكويل المسن...ولكنهما مختلفان أليس كذلك؟»

وكان أندرو بلاكويل، يشغل منصب القسيس المحلي، وبالرغم من أن

آديل كانت غير متدينة، وتجادله كثيراً. إلاّ أنها كانت تسعد بحديثه.

فأجابتها آديل متسائلة:

«لماذا رفضت تناول طعام الغداء معنا؟ لا يمكن أن يراودك التفكير في أننا كنا نبغي الانفراد. إن بيير لا يسعده أن يجلس إلى امرأة عجوز شمطاء مثلي».

«أنت لست عجوزاً. ولا شمطاء. لا تكوني حمقاء».

تنهدت آديل وقالت:

«ذات مرة، كنت أنا و بيير، يعرف أحدنا الآخر حق المعرفة. عندما كنت شابة. ولم أكن مشلولة كما أنا الآن. كان في وسعي أن أفعل الشيء الكثير».

قالت ربيكا برقة:

«أنت لست مشلولة الآن».

«ليس تماماً، وإنما مقيدة إلى كرسي متحرك، لا أستطيع المشي على قدمي، أو الرقص، أو السباحة...»

وكانت ربيكا تشعر في لحظة كهذه، بمشاعر العطف نحو آديل، فقالت لها:

«ولكنك لست مقيدة إلى الفيللا. لدينا السيارة، ويمكننا الذهاب إلى نافويا غداً إذا شئت. دكتور مانسون يقول إن الرحلة النهرية التي تبدأ من هناك جميلة للغاية...ستستمتعين بمنظر الغابات والشلالات».

وهنا التفتت آديل نحوها، وقالت بنفاد صبر:

«إنني لا أرغب في رحلة نهرية، إنك شابة، تتمتعين بالصحة، فلا تسخري مني، إنني عديمة النفع، إنني حطام امرأة، ولا أستحق أن أدعى امرأة...»

«هذا هراء!»

«أي هراء؟ هل تظنين أنني لا ألاحظ الطريقة التي يتطلع بها الرجال إليك؟ الطريقة التي ينظر بها دكتور مانسون إليك؟ الطريقة التي تطلّع بها بيير إليك؟»

توردت وجنتا ربيكا وقالت:

«من فضلك يا أنسة سانت كلاود...»

«لماذا؟ لماذا لا أقول ذلك؟ إنها الحقيقة أليس كذلك؟ لا تجعليني أبدو غبية يا ربيكا! ماذا قال لك بيير ليلة أمس حتى أثار القلق في نفسك؟»

بدأت ربيكا تقود المقعد المتحرك عبر الممر، حتى بلغت غرفة آديل، فتكلمت ثانية بنبرة مختلفة فقالت:

«اخبريني يا ربيكا، الآن أتيحت لك الفرصة للتحدث إليه، ما رأيك في بيير؟»

«يبدو أنه شخص جذاب للغاية».

وصمتت ربيكا قليلاً حتى تحمل آديل إلى فراشها، وتحل أزرار ثوبها، ثم استطردت قائلة:

«هل تعرفينه منذ آن طويل؟»

«إن أسرته وأسرتي تربطهما صداقة وطيدة، وفي وقت من الأوقات ظن الناس أننا سنتزوج...»

تطلعت ربيكا إليها وهي تحاول إخفاء دهشتها. لا بد أن بيير سانت كلير كان في مثل سن آديل في ذلك الحين...وفجأة تذكرت شيئاً قاله لها ليلة أمس. أخبرها بأنه زوج شقيقتها! انتابها شعور اعتصر أمعاءها، هل تزوج من شقيقة آديل؟

أخذت آديل تراقب ربيكا عن قرب، ثم سألتها:

«لماذا أنت متجهمة الوجه؟ هل فوجئت بالأمر؟»

«لا...لا...إنما هناك شيء قاله لي السيد سانت كلير...»

«ما هو؟»

هزت ربيكا كتفيها، وقالت:

«قال إنه زوج شقيقتك».

هزت آديل رأسها، وألقت بظهرها على الوسائد، وقالت:

«هذا صحيح. لقد تزوّج واحدة من شقيقاتي الأربع».

سألتها ربيكا:

«إذن متزوج!»

تطلعت آديل إليها طويلاً...ثم رسمت ابتسامة فوق شفتيها، وقالت:

«شقيقتي ماتت!»

ثم أغلقت عينيها، وضغطت ربيكا يدها على بطنها، وقالت:

«سأحضر أحد الأقراص المهدئة».

فتحت آديل عينيها، وقالت:

«ليس ضرورياً...إنني أشعر بإعياء شديد».

«سأتركك الآن...استدعيني إذا كنت في حاجة إلى شيء».

«سأفعل، وعلى فكرة، بيير سيأتي لتناول طعام العشاء مساء الغد. واطلبي من روزا أن تستخدم براعتها في إعداد أطباق جديدة تختلف عن تلك التي تعودت أن تقدمها لنا».

وسارت ربيكا نحو الباب وهي تقول:

«سأتحدث إليها...»

وانفلتت هاربة بسرعة من الغرفة!

٢ ـ أرصفة القلب المشمسة

توجّهت ربيكا في صباح أليوم التالي إلى الشاطىء، وكانت الرمال الناعمة باردة تحت قدميها، ولكنها توقفت برهة عندما بلغت مكان التقاء الماء برمال الشاطىء، فمدّت ذراعيها تستقبل بهما أشعة شمس الشروق.

وبرز رجل من وراء الأشجار المتناثرة، أخذ يتجه نحو ربيكا التي أحست بوقع خطوات متطفلة تقتحم عليها وحدتها، فاستدارت وهي تلهث، يخالجها مزيج من الضيق والدهشة، وعندما تبينت الشخص المتسلل، كان بيير سانت كلير قد أصبح في مواجهتها، فبادرها قائلاً:

«صباح الخير يا آنسة، هل اعتدت السباحة في هذه الساعة؟»

حاولت ربيكا أن تتمالك، إذ فاجأها الرجل وهي ترتدي ثوب البحر، فشعرت بالحرج، وقالت له:

«هذا الوقت يخصني وحدي، فإن الآنسة سانت كلاود لا تستيقظ من نومها قبل التاسعة!»

هز بيير رأسه. وقال:

«آه...فهمت!»

تردّدت ربيكا قليلاً، ثم قالت:

«الذي أعرفه أنك مدعو لتناول العشاء. وليس لتناول طعام الافطار».

ابتسم بيير قائلاً:

«إن لديك لساناً صغيراً لاذعاً يا آنسة. قد يدهشك أن تعرفي أنني ما جئت لزيارة الفيللا. غرفتي في الفندق حارة، لذا قررت التجول بسيارتي، وبينما كنت أمر بالفيللا، رأيتك تسيرين نحو الشاطىء...إنني أعتذر لتطفلي عليك».

توردت وجنتا ربيكا وقالت:

«بما أنك صديق، أو بالاحرى قريب لرئيستي في العمل، فإن وجودك على الشاطىء لا يفسر بأنه اقتحام لوحدتي، فأنا لست سوى موظفة عند آديل».

«لا أهتم كثيراً بتعليقاتك يا آنسة. أنا لم أقصد المجيء إلى هنا».

لطم بيير سرواله براحة يده، ثم استدار وسار على الشاطىء، وعندئذ ضغطت ربيكا شفتيها في حسرة، فقد كانت واثقة أنه لن يشير إلى هذا الحادث أمام آديل، وشعرت بالحماقة لأنها سلكت معه هذا المسلك الوقح. وكان ينتابها إحساس غريب بأن شيئاً يجذبها إليه، وإن لم تكن هي واثقة بانجذابه نحوها، تنهدت، وألقت بنفسها في أحضان الماء، وامتنعت عن التفكير فيه حتى لا تبدّد جمال اللحظة التي تتمتع فيها بالسباحة في البحر.

عادت ربيكا إلى المنزل، وبينما كانت تقوم بتنسيق الزهور في القاعة، رنّ جرس التليفون، فرفعت آديل السماعة، وعندما أعادتها، كان وجهها متجهماً، وغاضباً، واتجهت إلى ربيكا بالحديث قائلة:

«إنه بيير...طلب تأجيل موعد العشاء!»

ابتلعت ربيكا ريقها بصعوبة...وحاولت أن تظل متماسكة، فتمتمت تقول بهدوء:

«أوه...هل أشار إلى سبب التأجيل؟»

قالت بحدّة تنمّ عن نوع المعاملة التي سوف تتلقاها ربيكا في هذا اليوم:

«له علاقة بأعماله التي ينجزها هنا. وفي أية حال، فإنه لن يأتي...عليه اللعنة!»

مضت ثلاثة أيام قبل أن تراه ثانية، وكانت آديل خلالها تتحرّق شوقاً إلى

سماع مكالمة تليفونية منه، ولكنها لم تتلق واحدة. كما أن ربيكا بدأت تعتقد أنه لن يعود لزيارة الفيللا مرة أخرى. وعندما انتهت أعماله في سوفا، وتوجه إلى لاوتوكا، تضاءلت الفرصة كثيراً في رؤيته.

ولذلك كانت مفاجأة يوم أن التقت به ربيكا. كانت قد ذهبت إلى سوفا لتشتري بعض الحاجيات التي طلبتها آديل، وعندما انتهت من الشراء أخذت تتجول بين الأكشاك المتناثرة في السوق. ووقع بصرها على قنينة تحتوي على زيت الصندل تباع في أحدها، وهي معروضة بطريقة تجذب أنظار السياح. وراح البائع يغريها بالشراء. وبدا عليها التردد عندما أحست برجل يقف إلى جوارها. فأدارت رأسها، ورأت بيير سانت كلير.

قال وعلى وجهه علامات الوقار والجدية:

«صباح الخير يا آنسة. هل تنوين شراء القنينة؟»

ابتسمت ربيكا ابتسامة شاحبة، وأجابت:

«لا أظن ذلك...إن منظرها جذب بصري».

«هل تعرفين أن أهالي فيجي اعتادوا استعمال هذا الزيت ليطيّبوا أجسامهم به؟»

«إنني أفضل عليه العطور».

وتطلّع بيير إلى البائع، وسأله بالفرنسية:

«هذا العطر...ما ثمنه؟»

وارتجفت ربيكا...وقبل أن يتفوّه البائع بكلمة، ولت بسرعة، هاربة، فقد أدركت أنه ينوي شراء القنينة وهي لا ترغب في شرائها. وكانت قد تركت سيارتها في شارع جانبي، وبالرغم من حركة المرور في شوارع سوفا وازدحام السياح بها، إلاّ أنها لم تتخلص من اضطرابها لوجود بيير سانت كلير إلى حد ما إلاّ في ازدحام الناس.

على أنها ما كادت تبلغ سيارتها، وتميل بجذعها لتضع المفتاح في الباب، حتى

وجدت الرجل الذي كانت تهرب منه يقف إلى جوارها. فقالت له بصوت يتسم بالحزم:

«هل أفهم من هذا أنك تطاردني؟»

قال وقد عقد ذراعيه فوق صدره:

«أجل!»

وكان شعره الأسود الكثيف مرسلاً ناعماً فوق رأسه، بينما عيناه السوداوان تشعان بكبرياء أخاذة.

«أخبرني بالضبط لماذا تقتفي أثري؟»

هز كتفيه باستخفاف وقال:

«لأعطيك هذا...»

وقدّم لها طرداً صغيراً، ملفوفاً بورق ملون. ولكن ربيكا أبت أن تأخذه، وقامت بوضع حقيبة المشتريات في السيارة، ثم استدارت وقالت له:

«شكراً...لا أريد شيئاً منك. والآن هل تسمح لي؟»

نظر بيير إليها ببرود وقال:

«ماذا تتوقعين أن يكون في الطرد؟»

«من الأفضل ألاّ أخمّن شيئاً».

«تظنين أنه زيت الصندل...أليس كذلك؟»

«وماذا يكون غير ذلك؟»

انتزع الورقة التي تكسوالطرد، وقال:

«ماذا لو قلت لك إن شيئاً قد سقط منك في السوق، وقد عثرت عليه، فأعدت تغليفه بهذا الورق الملون!»

وأسرعت ربيكا تتطلع إلى حقيبة المشتريات...وبدون مراجعة محتوياتها راودها الشك في أنه من المحتمل أن تكون نسيت شيئاً. فعضت شفتيها وقالت:

«أنا واثقة بأن شيئاً ما لم يسقط مني! أظن أنك تتعمد مداعبتي، لسبب في

نفسك!»

رفع حاجبيه، وبحركة هادئة، فض الطرد، فسقط مسحوق البودرة على راحة يده، فنظرت ربيكا إلى البودرة بعيون غير مصدقة. إنها بودرة تالك ذات الرائحة المعطرة التي اشترتها لآديل. وشخصت ببصرها إليه، ولكن عينيه لم تنمّ عن شيء! وابتلعت ربيكا ريقها بصعوبة، ثم قالت:

«إنها لا تخصني! لا يمكن أن تسقط مني وإلاّ سمعت صوت سقوطها!»

«ولم لا؟ لا يمكنك سماع سقوطها وسط ضجيج السوق!»

«لست متأكدة...ربما أخذتها من حقيبتي».

هز رأسه في يأس، وسألها:

«ماذا فعلت حتى تحكمي عليّ برأي ضعيف؟ ماذا قالت لك شقيقة زوجتي؟»

وفتحت ربيكا باب السيارة، وقالت:

«لم تقل لي شيئاً يا سيد...والآن، هل تسمح لي؟»

«ألا تحبين استرداد علبة البودرة، يا آنسة؟»

«أوه...أوه. من المفروض أن آخذها!»

وانتزعت العلبة من قبضة يده، وألقت بها في المقعد الخلفي للسيارة، ثم استطردت قائلة:

«الآن يجب أن أرحل، إن آديل. أقصد الآنسة سانت كلاود سوف تتساءل عن سبب تأخيري».

«حسناً...ارحلي يا آنسة، ما دمت مصرّة على ذلك».

وجلست ربيكا وراء عجلة القيادة، وتطلعت إليه، وقالت:

«إنني لا أفهمك!»

«أحقاً ما تقولين؟»

«هل أنت. أقصد هل ستأتي لتناول طعام العشاء؟ قبل أن ترحل؟»

«هل ترغبين في ذلك؟»

شعرت ربيكا بتقلص أمعائها، وقالت متلعثمة:

«أنا...أنا...لا شأن لي بذلك».

«أحقاً لا يعنيك؟ أجل، سآتي، سأطلب آديل تليفونياً وأرتب معها الموعد. وبعدها هل ستصحبينني في نزهة بسيارتي؟»

اتسعت عينا ربيكا، وانتابتها رجفة، ثم قالت:

«أنا...أنا موظفة عند آديل. لا أستطيع الموافقة على لقاء مثل هذا، وبالاضافة إلى ذلك، فإنّ آديل لن توافق على هذه النزهة».

والتقت عيناه بعينيها، فقال لها:

«يجب ألاّ تعرف آديل. هل يجب أن تعرف؟»

قالت ربيكا وهي تلهث:

«أعتقد ذلك...تبدّد وقتك هباء. أنا. أنا لا أشبه النساء اللواتي تعرفهن!»

قال بيير:

«أعرف ذلك».

هزت ربيكا رأسها يأساً، وقالت:

«يجب أن أرحل...الوداع».

فأجاب على الفور:

«إلى الملتقى».

وتراجع بيير إلى الوراء...وعندما انطلقت ربيكا بالسيارة، انعكس الاضطراب على أسلوب قيادتها. وفي طريق العودة، لم تشعر ربيكا بجمال الطبيعة. وإنما كانت تحس بالألم، والاضطراب، والخوف من أن يمارس بيير ضغوطه عليها، ففي وجوده كان يذوب نفورها منه، بل إن مقاومتها له تضعف!

لقد أثّر عليها وكان الجانب الأحمق من شخصيتها يدفعها لتتلقى كل الاطراء الذي يطوقها به، ولكن الجانب العاقل فيها كان يحذّرها من أن أي شيء يقدمه لها قد يهددها بالخطر...وإزاء هذا الموقف المتضارب كانت ربيكا تشعر بالتمزق.

وعندما عادت إلى الفيلا، كانت اديل تستلقي على مقعد طويل، في الحديقة، وتستفيء بظل مظلة مخططة الألوان. وقد تطلعت إلى ربيكا بنظرة متأنية، ثم قالت:

«لقد غبت فترة طويلة. ماذا كنت تشترين؟»

وبذلت جهداً كبيراً حتى لا تتورد وجنتاها بالخجل. وقالت:

«كل ما طلبت مني شراءه».

وركعت علىالقرميد الدافىء، وبدأت تفرغ محتويات حقيبة المشتريات. وكانت علبة البودرة التي أعطاها بيير لها موجودة على رأس الأشياء، فقدّمتها أولاً لأديل ثم الجوارب، ومستحضرات التجميل، ومعجون الأسنان. وكانت علبة بودرة تالك معطرة تقبع في قاع الحقيبة، وتشابه نفس العلبة التي أعطتها في بادىء الأمر لاديل.

تناولتها ربيكا ونظرت إليها غير مصدقة، ولاحظت آديل طول تأملها في العلبة، فقالت لها:

«بحق السماء فيم تفكرين. هل اشتريت علبتين من بودرة التالك؟»

توردت وجنتا ربيكا، وألقت العلبة الثانية جانباً، ثم قال بسرعة:

«أنا...أنا اشتريتها لنفسي!»

قالت آديل بنفاد صبر:

«ولكنك لا تحبين هذا النوع من البودرة. لا حاجة بك إلى التظاهر يا ربيكا، إنني لا أضيق بوجود علبتين، ولكننا سنجد أنفسنا نستعملها في وقت واحد».

عضت ربيكا شفتها بشدة، ثم قالت:

«أوه...ولكني في الواقع».

قاطعتها آديل قائلة:

«ولكن في الواقع...لا شيء مهم. اذهبي وضعي هذه الأدوات في مكانها، واطلبي إلى روزا أن تعد لي القهوة!»

وجاء اليوم التالي...وحتى تحين اللحظة التي يدق فيها بيير جرس التليفون ليحدد موعد تناول العشاء، عاشت ربيكا تحت وطأة الاحساس بانتظار وصوله. وفكرت جلياً في موضوع علبة البودرة، وأدركت أن بيير لا بدّ قد رأى العلبة التي اشترتها من خلال القش الذي صنعت منه الحقيبة، واشترى علبة مماثلة لعلبتها، ثم اختلق القصة عندما قدم الطرد لها.

وقد اتفق بيير مع أديل على أن يتناول طعام العشاء في مساء اليوم التالي. وفي صباح ذلك اليوم، أصرت على التوجّه إلى سوفا لزيارة مصفف شعرها، وكانت ربيكا لا تريد القيام بمثل هذه الزيارة وخاصة أنها تشعر باضطراب يهز كيانها، ولكن ما جدوى رأيها إذا كانت أديل تصر على موقفها!

وعند الاصيل، استلقت أديل لتناول قسط من الراحة، بينا أخذت ربيكا تكوي الثوب الذي سترتديه في المساء. وكانت أديل تشعر بكراهية نحو ربيكا تدفعها إلى عدم السماح لها بحضور حفل العشاء، أما ربيكا فكانت تتحاشى غضب أديل إن هي حضرت الحفل. ولذلك استغرقت في أفكارها الخاصة بها، وراحت تبحث عن أسباب تتذرّع بها للغياب عن الفيللا في هذا المساء، لكي تضع مسافة بينها وبين زوج شقيقة أديل.

وبعد أن أخذت أديل حماماً، ساعدتها ربيكا على ارتداء ملابسها وتأملت أديل نفسها في المرآة، ثم قالت:

«منظري بديع للغاية. ألا تظنين ذلك يا ربيكا؟»

«بديع للغاية يا آنسة سانت كلاود. يجب أن تعديني ألاّ يزيد اضطرابك هذه الليلة، كان يوماً مجهداً لك، ومن الطبيعي...»

«عمّ تتحدثين يا فتاة؟ ستظلّين هنا حتى أكون أمام عينيك أليس كذلك؟ إنني أتوقع أن تنضمّي إلينا على مائدة العشاء؟»

«كلا...كلا يا آنسة كلاود، لقد اتفقت على عدّة مقابلات أخرى».

قالت أديل بصوت حاد:

«أية مقابلات أخرى؟»

وابتلعت ربيكا ريقها، ثم أخذت تبحث في عقلها عن أعـذار تلتمسهـا وأخيراً قالت:

«فكرت في أن أمضي الليلة في الخارج».

«ما هو المكان الذي ستتوجهين إليه وحدك؟ لك أن تتجولي في الجزيرة أثناء النهار، ولكن عندما يأتي الليل، فالأمر مختلف!»

«سبق أن قلت لي إنه يمكنني أن أستقل السيارة».

«أعرف ذلك. ولكن قد أحتاج إلى خدماتك هذه الليلة. الآن اذهبي واخلعي زي التمريض، وارتدي ثوباً جميلاً».

وتطلعت ربيكا إلى آديل في يأس، وقالت:

«أريد تناول العشاء في غرفتي يا آنسة سانت كلاود».

«لماذا؟ هل هذا بسبب وجود بيير؟»

«ماذا؟ لا...لا!»

«حسناً...لا أظن أنني السبب. فقد سبق أن تناولت العشاء معي مرات عديدة».

«لماذا ترغبين في أن أنضم إليكما للعشاء؟»

«ربما لأن الأيام التي أمضيتها هنا كانت بلا أحداث. وأشعر بالأسف لك. وعلى العموم، لن تتيح لك الأيام الفرصة لتتناولي الطعام مع مليونير».

وأنشبت ربيكا أظافرها في راحة يدها، ثم سألت:

«هل من حقي الاختيار؟»

قالت آديل بصوت صارم:

«لا ليس من حقك. الآن اذهبي وأعدي نفسك، حتى لا تكوني سبباً في زيادة اضطرابي؟»

اذهبي وأعدي نفسك، حتى لا تكوني سبباً في زيادة اضطرابي؟»

تنهّدت ربيكا، وانصرفت وعندما بلغت غرفتهـا، راحـت تفحص خزانـة ملابسها بعناية، وسألت نفسها: بحق السماء أي ثوب أرتديه؟ إن الثياب القصيرة

لا تقي من البرد. وهي غير مناسبة في مكان مثل هذه الجزيرة. أما الثياب شرقية الطراز فهي أكثر أنوثة. ولكنها لم تشعر بأدنى رغبة في أن تثير مزيداً من الاهتمام، ولذلك اختارت قفطاناً مزيناً بنقوش الغابة. وكان طويلاً وأكمامه تخفي استدارة ذراعيها. فارتدته، وانضمت إلى آديل. وعندئذ سمعت صوت محرك سيارة يتوقف عند الباب، وفتحت روزا الباب، وبعد دقائق قليلة دخل إلى الردهة شخص يقول:

«السيد بيير سانت كلير يا سيدتي. ورفيقته الآنسة إيفون دي بوي».

وشعرت ربيكا بالدماء تكاد تتفجر من وجهها، عندما رأت بيير يدخل الغرفة بقوامه الطويل النحيل، وهو يرتدي جاكيتاً من اللون الأبيض يتدلى من جيبها العلوي منديل أحمر، وكانت بصحبته أجمل نساء العالم. لم يسبق لربيكا أن رأت مثلها من قبل. وبالرغم من أنها كانت تبدو في مرحلة الشباب إلاّ أن ربيكا قدرت سنها بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين، وقد تخلّلت شعرها الأسود بعض الخصلات الرمادية. وكانت نحيلة القوام، أنيقة ترتدي ثوباً من الحرير الفضي، الذي أبرز رشاقتها. وعندما انتهت ربيكا من استطلاع أهم سمات إيفون، حولت بصرها إلى آديل لتعرف الانطباع الذي تركه قدوم الضيفة عليها.

ولدهشة ربيكا، بدت آديل وكأنها لم تفاجأ بزيارة الضيفة. بل كانت تتوقّع قدومها. وانتابتها الحيرة والتساؤل. لماذا أصرّت آديل على أن تدعوها إلى مأدبة العشاء، في حين أنها كانت تعرف أن بيير سيأتي بضيفة؟ ولماذا لم تخبرها بأن زوج شقيقتها لن يأتي وحده؟

أدركت ربيكا مدى السعادة التي ستنعم بها آديل في مثل هذا الموقف، فهل تكون قد شعرت باهتمام ممرضتها بالسيد بيير فاختارت هذه الوسيلة لتجبرها على ألاّ تعلق آمالها عليه؟

في أي حال. هذه الليلة ستكون فوق طاقة البشر.

راحت آديل تتحدث إلى إيفون، لتشعر ربيكا بأن المرأتين على معرفة سابقة منذ عدّة سنوات مضت، بينما اتخذ بيير طريقه ووقف إلى جوار ربيكا، وتمتم قائلاً:

«مساء الخير يا آنسة. إنني مندهش لأن آديل سمحت لك بالانضمام إلينا».

«الآنسة سانت كلاود أصرّت علا حضوري، ولسوء الحظ لم أكن في موضع يسمح لي بالاختيار».

سألها بصوت منخفض:

«لماذا تصرين على هذا المسلك الطفولي؟»

وهنا تطلعت ربيكا إلى آديل التي قالت لها:

«نريد أن تروي ظمأنا يا ربيكا. هل يمكنك إحضار بعض كؤوس الشراب؟ على فكرة يا إيفون هذه هي ممرضتي ربيكا ليندسي. كنت أنا و إيفون في مدرسة واحدة».

كانت نبرة آديل تشوبها البهجة والمرح. ولم تجد ربيكا أمامها أي اختيار إلاّ أن تذهب وتشد على يد السيدة الفرنسية، وتسألها أي شراب تحب أن تحتسيه. وعندما توجهت لاعداد الشراب، لحق بها بيير وشعرت بالحرج من وجوده معها. ولم ينقذها إلاّ وصول روزا لتعلن أن العشاء قد أعد. وتعهد بيير بقيادة المقعد المتحرك وهما يتقدمان ربيكا والسيدة الفرنسية ويتجهان إلى المائدة.

خيم الصمت على ربيكا وهي تتناول طعامها. بينما كان الأمر سهلاً في أن تدير آديل دفة الحديث مع ضيفيها. وهكذا وجدت ربيكا نفسها وحيدة. ولكنها لم تأبه كثيراً. وكان هذا في الحقيقة أفضل لها. وإن كانت تتـوق إلى الهروب منهم جميعاً.

وقدمت روزا القهوة في غرفة الجلوس. وبعد أن احتست ربيكا فنجانها نهضت وقالت:

«اسمحوا لي بالانصراف. عليّ بعض التقارير الطبية، كما أنني أشعر بصداع

خفيف».

تجهّمت آديل، وقالت:

«كتابة التقارير ليست أمراً عاجلاً. أما بالنسبة إلى الصداع فإنني اعتقد أن جولة في الحديقة كفيلة بأن تخلصك منه. وأنا متأكدة من أن السيد سانت كلير يمكنه مرافقتك».

وحملقت آديل في بيير الذي نهض واقفاً بدوره. فتوردت وجنتا ربيكا وتساءلت: ماذا وراء آديل؟ ولماذا اقترحت أن يرافقها بيير أثناء جولته في الحديقة، وبخاصة أنه لم يسبق أن أبدت أي اهتمام بمرضتها من قبل؟

قالت ربيكا:

«شكراً لك. لكن...»

عندئذ قاطعها بيير قائلاً:

«آديل على حق. هواء الليل سيفيدك أكثر من جلوسك في غرفتك. أنا واثق بأن آديل و إيفون ستجدان موضوعات شتّى للخوض فيها».

مالت إيفون للأمام. ووضعت يدها على ذراع بيير، وقالت له:

«دع ليندسي تتخذ القرار لنفسها يا عزيزي. ربما تكون متعبة».

راقبت ربيكا الحديث الدائر باهتمام، وتساءلت أية علاقة تربط بين إيفون دي بوي وبينه؟ ومن ملامح المودة التي ارتسمت على وجهها، استطاعت ربيكا أن تدرك أن العلاقة بينهما على النحو الأرداً. فقالت ربيكا مؤكدة:

«أجل، إنني مجهدة. وأرغب في النوم».

قالت آديل بقسوة:

«ماذا من أمري أيتها الفتاة؛ أنسيت أن واجباتك نحوي لم تنته بعد هذا المساء؟»

ترددت ربيكا وقالت:

«أظنّ أن روزا لن تمانع في مساعدتك. فهي كانت تحل محلي أثناء الأمسيات التي أمضيتها بالخارج».

وحتى لا تظهر آديل في صورة المستخدمة العنيدة، فلم تستطع أن تتخذ قراراً تجاه ممرضتها. وتمنت ربيكا للجميع أمسية طيبة، وهي تتجاهل نظرة الازدراء التي بدت في عيني بيير، وأسرعت لتبحث عن الأمان في غرفتها. وكانت تعرف أن آديل ستجعلها تدفع ثمن معارضتها لها بهذا الأسلوب غالياً، ولكنها لم تكترث كثيراً!

٣ ـ بئر بلا قرار

في صباح اليوم التالي، لم تتوجه ربيكا إلى الشاطىء للسباحة كعادتها. ففي الساعات الأولى أيقظتها آديل بنداء ضعيف. فأسرعت ترتدي ثوبها. وهرعت إلى غرفة مريضتها.

كانت آديل ترقد وسط الفراش. وكان من الواضح أنها توجّهت إلى الحمام، وفي أثناء عودتها تهاوت على الأرض. وبدا جلياً أنها تحاول التقاط أنفاسها، وهي تضغط راحتها على صدرها، لتخفف من حدة الألم الذي يكاد يمزقها.

عاونتها ربيكا على النوم في وضع مريح. ثم أسرعت إلى خزانة الأدوية وعادت تحمل معها دواء أعطتها إياه، وكان لوجود ربيكا أثر فعال في أن تستعيد آديل هدوءها الطبيعي، وبعد قليل تحدثت إلى الدكتور مانسون هاتفياً، وطلبت منه المجيء بسرعة.

وعندما وصل الطبيب، أثنى على ما فعلته ربيكا. وأنب آديل على طيش سلوكها في اليوم السابق، وقال لها:

«ليكن في علمك أن صحتك لا تحتمل قضاء يوم كامل مشحون بالانفعال، بالاضافة إلى أنك تناولت طعاماً دسماً. ربيكا أخبرتني بكل شيء. أنت سعيدة الحظ بوجود ربيكا معك. لا أدري ماذا كان يحدث لو...»

وكانت آديل قد بدأت تفيق تدريجياً من نوبة الشلل التي هاجمتها، فألقت نظرة عتاب على ربيكا وقالت:

«أنا في صحة جيدة. ولا حاجة لاستدعائك بتاتاً. أرادت ربيكا أن تخبرك بأنني

لم أنفذ تعليماتها. يا إلهي متى تأتي الساعة التي لا أعتمد فيه على أحد».

نظر دكتور مانسون بحنان، وقال:

«أنت تدركين تماماً أنك ستعتمدين على غيرك ما حييت، وهذا أمر يجب أن تتقبليه برحابة صدر».

بدت المرارة على وجه آديل وصرخت بصوت يشوبه ألم العذاب:

«لقد عشت به طوال حياتي».

تحوّل دكتور مانسون عنها، وفي عينيه نظرة يأس، وشاركته ربيكا شعوره بهزة من رأسها. كان كل منهما يخشى آثار الكآبة على نفسية آديل.

وبعد رحيل الطبيب، قامت ربيكا بإعطاء آديل قرصاً مهدئاً. وبعد قليل استغرقت في النوم. وأحست ربيكا بالذنب. وراحت تلوم نفسها وأخذ عدد كبير من الاحتمالات يطن في عقلها. فلو أنها مكثت معها ليلة أمس حتى انتهاء وليمة العشاء. لو أنها رافقتها حتى الفراش. لو أنها راقبت العلامات الأولى التي تنذر بقدوم النوبة. لأمضت آديل ليلة هادئة ولما أصابتها هذه النوبة. لا شك أن الطعام الدسم كمية الشراب التي احتستها سبب ما حدث لها!

تركت ربيكا فراش آديل وتوجّهت إلى غرفتها، وكانت الساعة تقترب من السابعة صباحاً. ولم تفكر في أن تأوي إلى سريرها. فقد تحتاج إليها آديل ثانية، ولذلك توجهت إلى المطبخ وطلبت فنجاناً من القهوة من روزا التي بدا القلق على وجهها، وراحت تسأل ربيكا أسئلة عديدة عن آديل.

هدأتها ربيكا. ثم سألتها:

«هل كانت آديل بخير عندما قمت بمرافقتها إلى سريرها ليلة أمس؟»

قالت روزا:

«كانت متعبة فقط رأيتها تتناول قرصها كما أخبرتني أنت. كانت بخير».

«لا داعي للقلق يا روزا. ستعود إلى حالتها الطبيعية خلال يوم أو اثنين. عليها أن تمكث في فراشها اليوم وربما غداً أيضاً. إن الدكتور مانسون أخبرني

بذلك».

وقدّمت روزا فنجان القهوة وقالت لها:

«هل أنت بخير الآن؟ إن السيد سانت كلير أخبرني بأن صداعاً قد ألمّ بك ليلة أمس، ولذلك توجهت إلى فراشك، قبل رحيل الضيوف».

«أخبرك السيد سانت كلير بذلك! متى رأيته؟»

«لقد ساعدني على أن أضع آديل في فراشها قبل أن يرحل».

عضت ربيكا شفتها وقالت:

«أوه...أوه! متى رحل الضيفان ليلة أمس؟»

لم تسمع ربيكا محرك السيارة عند رحيلها، وقد يرجع السبب في ذلك إلى أن غرفتها تقع بعيداً عن الطريق العام. وأفاقت على صوت روزا وهي تقول:

«رحلا بعد أن أويت إلى فراشك مباشرة».

هزت ربيكا رأسها، وحملت فنجان القهوة، واقتربت من النافذة، وراحت تتأمل المرج الممتد خلف الفيللا. لم تفكّر في الألم اللذيذ الذي كانت تشعر به في أعماقها. وراحت تتساءل: لماذا يحاول بيير أن يؤثر فيها بهذه الطريقة؟ لماذا لا تستطيع أن تبعد التفكيرَ فيه عن ذهنها؟

كان المرض المفاجىء الذي داهم آديل مانعاً من أن تلوم ربيكا على ما بدر منها من سلوك في الليلة الماضية أثناء مأدبة العشاء. ولما تمالكت قواها، وغادرت الفراش في اليوم التالي وجهت بعض التعليقات الساخرة لها. وإن لم تشر إلى اسم بيير سانت كلير بإشارة. وكان التفسير الواضح الذي شعرت به ربيكا لعدم ذكر اسمه يرجع إلى أن هناك أسباباً تحتفظ بها آديل لنفسها، وتمنّت أن تعرف ما يدور بخلد مريضتها.

وفي مساء اليوم الثاني لحدوث النوبة، بدأت آديل تعود إلى حالتها الطبيعية، مما أتاح الفرصة لربيكا لأن تتوجّه إلى الشاطىء وتمارس رياضة السباحة. كانت أول مرة تغادر فيها الفيللا. لأنها خشيت طوال الوقت على

آديل أن تهاجمها نوبة أخرى.

خلعت ثيابها. ولامست قدماها الماء البارد. ثم ألقت بجسمها في أحضان البحر. وراحت تسبح مسافات طويلة. حتى شعرت بالحيوية تتجدد في ساقيها. فألقت بظهرها فوق سطح الماء. وراحت تتأمل قوس السماء التي تعلوها.

عادت إلى الشاطىء، وهي منتعشة ونفضت الماء عنها وبينما كانت تضم الروب حول جسمها جيداً. تناهى إلى سمعها صوت وقع أقدام تسعى نحوها، فأجفلت. ورأت شبح رجل مقبلاً عليها، وراودها التفكير في الهرب، ولكن أطرافها تجمدت في مكانها. ووقفت عاجزة عن الحركة، وقالت:

«ألا تعلم أنك تقتحم خلوتي؟ إنه شاطىء خاص!»

«وأنت مجنونة لكي تستحمي وحدك هنا. يا إلهي. أليس لديك أي إدراك يا ربيكا؟»

وسألته وهي ترتعد:

«هل كنت تتجسّس عليّ؟»

«أنا لا أتجسس عليك. وإنما جئت هنا على أمل رؤيتك. إن منظر انثى شبه عارية مثلك ليس أمراً جديداً بالنسبة إلي. وإذا كنت متطفلاً كما تقولين، فماذا كان سبيلك للدفاع عن نفسك وأنت في مثل هذا الثوب؟»

عادت تكرر مرة أخرى:

«إنه...إنه شاطىء خاص!»

«ولكنه ليس محدّداً بسياج. أنت تعملين باستمرار على إثارة غضبي. عندما أتحدّث إليك أو عندما أحاول أن أكون صديقاً لك. تبادرين بالوثوب عليّ مثل الهرة الشرسة. جئت هنا بدون اتخاذ أية احتياطات من أجل سلامتك. لقد نفد صبري معك».

«إنني لا أطمع في تسامحك. والآن ابتعد عن طريقي».

ولكن بيير ظل في مكانه. يحملق فيها، وعندما بدأت تتحرك. تحرك هو

بدوره. يعترض سبيلها. فتطلعت إليه بغضب. مستخدمة غضبها درعاً يقيها من جاذبيته. ثم قالت له بحزم:

«من. فضلك، ابتعد عن طريقي».

وتنحى بيير عن طريقها، بدون أن يتفوه بكلمة. ووجدت صعوبة في المشي، فقد تجمدت ساقاها. وبعد جهد استطاعت أن تقطع الشاطىء، وتخترق الحشائش حتى بلغت الفيللا. ولم تنظر وراءها، ولكنها كانت تدرك تماماً أنه يتطلع إليها.

وفي نهاية الأسبوع تحدثت آديل تليفونياً. ودهشت ربيكا إذ اعتادت أديل أن تسألها القيام بهذه المهمة. وكان من الواضح أن أديل كانت تبغي أن تكون وحدها أثناء المكالمة. فتركتها ربيكا وهي تتساءل عمن يكون الشخص الذي تتحدّث إليه آديل سراً.

وبعد مضي يومين. وعند الأصيل. قامت ربيكا بمساعدة آديل لأخذ إغفاءة قصيرة. ثم دخلت إلى الصالة لتجمع الزهور الذابلة من المزهرية. وعندئذ شعرت أن بيير سانت كلير دخل إلى الصالة. فتطلعت إليه ورأت البرود والتجهّم باديين على وجهه، فقالت له على الفور:

«إنني لم أسمع صوت محرك سيارتك».

«تركتها في مكان بعيد، إذ خشيت أن تكون آديل نائمة ولم أرغب في إزعاجها!»

«ما دمت تعرف أن آديل نائمة، فما سبب مجيئك؟»

«لأسباب واضحة. إنني أستطيع أن أتصوّر ما أخبرتك به آديل عني. ولكن أرجوك، لا تتسرعي في إصدار حكمك عليّ».

«ليس من حقي أن أصدر حكماً عليك. إن ما أشعر به حقيقة هو أنك تبدّد وقتك ومواهبك في مطاردتي!»

«كفى...أنت لا تعرفين شيئاً عن حياتي».

وأطبق قبضته في غضب، ثم استطرد يقول في نبرة متغيرة:

«ربيكا...هيا بنا نقوم بجولة في سيارتي».

«لا أستطيع...ربما تحتاج إليّ الآنسة سانت كلاود».

«لن تحتاج إليك قبل ساعة...هل تعتبرين طلبي أمراً مستحيلاً؟ وهل تعتبرين صحبتي شيئاً بغيضاً إلى نفسك؟»

وأشاحت بوجهها عنه. فقد كانت حواسها كلّها تهيب بها أن تقبل دعوته، بينما كان عقلها يرفضها. ولكن العقل يجب أن يقهر من أجل سلامته. وعندما تحركت ربيكا نحو الممر المؤدي إلى غرفتها، سألها بحزم:

«ما هو قرارك؟»

«سأكون مستعدة بعد قليل».

وحينما عادت، وجدته يذرع الصالة نافد الصبر، كأنه حيوان سجين في قفصه، ولكن عينيه تألقتا بالبريق عندما رآها جذابة وهي ترتدي تنورة بيضاء بكسرات، وبلوزة بلا أكمام.

قال لها:

«أخبرت روزا بأننا سنخرج سوياً. في حالة ما إذا استيقظت آديل أثناء غيبتك».

استقلا السيارة، وقطعا مسافة استغرقت ثلاثة أرباع الساعة حتى بلغا سهلاً يقع فوق ربوة عالية تطل على الوادي كله. أوقف بيير محرك السيارة وفتح الباب المجاور له ترجل خارجاً. وراح يتأمل جمال منظر الجزيرة، ثم استدار حول السيارة. حتى بلغ ربيكا التي ظلت جالسة في مقعدها. فسألها:

«حقاً المنظر جميل. أليس كذلك؟»

قالت ربيكا بتعاسة:

«حقاً جميل! ولكن يجب أن نعود. إننا سنتأخر».

مال على الباب وعيناه تدغدغان مشاعرها وقال:

«أوه يا ربيكا. هل أنت دائماً مهتمة بما هو صحيح، وما هو خطأ؟»

ترجلت ربيكا تاركة مقعدها، لتقف إلى جواره وهي حريصة على أن تكون

بعيدة عنه، ولكنه كعادته نجح في بلبلة أفكارها. تنهد ثم قال لها:

«اقتربي مني، سنجلس قليلاً، هل تدخنين؟»

«كلا...لا أدخن».

جلس بيير على الأرض الخضراء التي أدفأتها أشعة الشمس، وأخرج سيكارة و أشعلها. ثم تطلع إلى ربيكا. وهز رأسه في تعجب، وقال لها:

«أخبريني، ما سبب قلقك؟»

تدافعت أنفاسها، وفجأة تذكرت السبب الذي دفعها إلى ترك بريطانيا. لقد ماتت جدتها قبل أن تنتهي فترة تدريبها، فاضطرت أن تعيش في شقة مع ممرضة تدعى شيللا، كانت مخطوبة لشاب يدعى بيتر فيلدمان. وكان من الطبيعي أن يتردّد بيتر على الشقة. فأحسّ بانجذاب عاطفي نحو ربيكا، ومالت إليه بدورها. كان الموقف حرجاً، لأن شيللا كانت فتاة مليحة وصديقة مخلصة، ولا تستحق أن تطعن في مشاعرها. ولذلك فإنها عندما انتهت من دراستها، قبلت هذه الوظيفة التي تحملها آلاف الأميال. بعيداً عن الاغراء الذي يفرق بينها وبين صديقتها. ولقد ظنّت أنها كانت تحب بيتر. ولكن في هذه الأرض الجديدة، وبفعل الظروف المحيطة بها، استطاعت أن تنساه، وشكرت السماء حين اكتشفت أن عاطفتها نحوه قد انطفأت جذوتها، في الوقت الذي بدأ فيه بيير يخلق لها مشاكل مختلفة تماماً. فقد أثار عاطفتها بطريقة لم تعتقد يوماً أن إنساناً يستطيع إثارتها. حقاً إنه لم يلمسها، ولم يبذل من جانبه أي مجهود واضح، ومع ذلك استطاع أن يشيع الاضطراب في مشاعرها.

لقد فزعت عندما تحدث إليها وهي في سيارتها. وكانت حينئذ مستغرقة في أفكارها فلم تدرك دوافعه. أما الآن فإنه يسألها سؤالاً مباشراً:

«لماذا تخافين مني يا ربيكا؟»

حاولت أن تفتح فمها لتعارضه. ولكنها أغلقته بدون أن تتفوّه بكلمة. إنها حقيقة لا مراء فيها، أنها خائفة منه. أو على الأقل خائفة من القوة التي يفرضها

عليها. وعندما شرعت في الابتعاد عنه، اطبقت أصابعه على ذراعها وتنهد بحرقة، ثم تمتم قائلاً:

«ربي...لماذا التقيت بك؟»

ارتجفت ربيكا من قبضته، وقالت بوهن:

«يجب أن نعود».

تطلّع إليها عن عمد، ثم قال:

«أحقاً يجب أن نعود؟ أنا لا أرغب في العودة. فهل ترغبين أنت؟»

««أوه...بيير! إنه...إنه...»

ومال برأسه، ومست شفتاه ذراعها مدغدغاً إياها عن عمد، ثم استطرد قائلاً:

«يا لها من بشرة ناعمة. مثل بشرة الطفل. ولكنك لست بطفلة. وإنما أنت امرأة يا ربيكا، أنت تريدينني كما أريدك أنا أيضاً».

«لا...لا...أنت مخطىء!»

لم يحاول أن يبقيها بين يديه عندما بدا الخوف على محياها. وإنما راح يراقبها فترة سادها الاضطراب، ثم أشاح بنظراته عنها، وراح يحملق في الجزيرة. ومياه البحر اللانهائية. ومرّت بها لحظة انتابتها الرغبة في العودة إليه. ولكنها قبل أن تحقق رغبتها، رأت بيير يخطو فجأة بخطوات واسعة نحو السيارة وهو يقول لها بصوت آمر:

«هيا بنا».

ووجدت نفسها تسارع إلى الانضمام إليه، وفي طريق العودة خيم الصمت عليهما ، حتى بلغا الفيللا. ومدّ ذراعه وفتح لها الباب فانزلقت منه خارجة. وبدون أية كلمة، أغلق الباب ثانية، وأدار محرك السيارة، وانطلق ينهب الطريق.

وكانت مفاجأة لربيكا أن تجد آديل ما زالت في فراشها طوال الفترة التي غابت فيها عنها. وما كادت تدخل غرفة النوم، حتى سألتها المرأة العجوز:

«أين أمضيت كل هذا الوقت يا آنسة ربيكا؟»

أغلقت ربيكا الباب، ثم ارتدت زي التمريض على أمل أن يشفع لها لدى مريضتها وأجابت:

«قمت بجولة في سيارة السيد سانت كلير. إنني آسفة إذا كنت قد تأخرت. كيف تشعرين الآن؟ هل استمتعت براحة كافية؟»

«انتظري دقيقة، أريد تفسيراً لخروجك معه!»

تنهدت ربيكا، وقالت:

«جاء وأنت نائمة، ودعاني للخروج معه، وقبلت دعوته. إنني آسفة إذا كان لديك اعتراض على خروجي معه».

«انتظري قليلاً، أنا لم أقل أنني معترضة. هل قلت ذلك؟ ماذا حدث؟»

«ماذا تعنين بقولك ماذا حدث؟ ماذا يمكن أن يحدث؟ لا شيء إطلاقاً طبعاً».

وبدأت ربيكا في طي الأغطية، استعداداً لمغادرة آديل الفراش، فسألتها آديل:

«هل أخبرك بسبب دعوته لك؟»

«أعتقد أنها كانت نهاية المطاف، وأنه لن يدعوني مرة ثانية».

حلقت آديل في وجهها، وسألتها:

«لماذا؟ ماذا حدث؟»

بذلت ربيكا جهداً كبيراً كي تحتفظ بهدوء أعصابها. فقد كانت تعرف أن آديل تتحرّق شوقاً إلى معرفة أية أخبار. وفي هذه المرة لا تستطيع ربيكا أن ترضي فضولها. ولا تستطيع أن تكشف لها كل ما دار بينها وبين بيير سانت كلير. فقد بدا لها ما حدث لا يعدو أن يكون تجربة قامت بها، وتحتاج نتائجها إلى تحليل. وفجأة صرخت آديل قائلة:

«بربك يا فتاة. ألا أستطيع أن أبدي قليلاً من الاهتمام. عندما أرى ممرضتي تجذب اهتمام رجل مثل بيير سانت كلير؟»

قامت ربيكا بمساعدة آديل على مغادرة الفراش، وعاونتها على تثبيت

ثيابها، ثم قالت لها:

«ما حكايتك يا ربيكا؟ هل تشعرين بالغيرة؟»

فتطلعت إليها ربيكا بغضب، وقالت:

«لا...بالطبع لا».

وصمتت ربيكا قليلاً حتى لا تتيح لآديل إثارتها. وهذا تماماً ما تصبو إليه المرأة العجوز. وقد توقعت منها أن تصبّ جام غضبها على أية بادرة خطأ تحدث منها. ولذلك تقبلت ربيكا هذا اللوم بابتسامة. وأجلستها على المقعد المتحرك ودفعتها إلى غرفة الجلوس حيث كانت روزا تعدّ شاي بعد الظهر. وأصرّت أديل على أن تصنب الشاي بنفسها وتعمّدت أن تسكب قليلاً من السائل الساخن على السجادة. بالقرب من قدمي ربيكا التي اضطرت للبحث عن قطعة من القماش لتجفف بها آثار الشاي المسكوب، وهي تدرك أن آديل كانت تتمنى لو انسكب السائل الساخن فوق رأسها!

واستأذنت ربيكا لكي تعيد تنظيم فراش آديل. ثم توجّهت إلى غرفتها لتنظيفها. وكانت حماستها فاترة، وعندما استنفدت صبرها، ألقت بجسدها فوق سريرها، وراحت تحدق في المرآة شاردة الذهن، وطفقت تحدث نفسها: لو لم تقابل بيير لما تشتت تفكيرها. كانت الحياة بسيطة منذ عشرة أيام، وكانت راضية بحياتها، ومتقبلة لتصرفات آديل الشاذة. ولكن بيير أفسد عليها حياتها. لقد أثار في أعماقها معنى الحياة. هل هي حمقاء أن ترفض ما قدمه لها، حتى لو لم يكن أبدياً؟ إن كل ما تعرفه عنه هو أنه رجل ثري وأن زوجته متوفاة. هذا ما أخبرتها به آديل وهي تحدثها عنه. أما هو فلم يخبرها بشيء. هل لديه أسرة؟ وإذا كانت لديه أسرة، فأين هي؟ كان في نظرها لغزاً مثل بئر بلا قرار!

في صباح اليوم التالي، التقت ربيكا بالسيد بيير سانت كلير على الشاطيء. فقررت أن تسير بعيداً عنه، ولكنه قال لها فجأة:

«جئت لأعتذر لك، عما بدر مني من تصرفات. يا إلهي. لم أكن سيء السلوك يوماً

ما».

وتطلّعت إليه ربيكا مندهشة، وتساءلت هل هو جاد في كلامه أم أنها محاولة جديدة للعبث بها؟ ولكنها تبينت أمارات الجدية بادية على وجهه، فمدّت يدها محيية، وقالت:

«لا تلم نفسك...لم يُحدث أي ضررا»

«أحقاً ما تقولين؟ كيف حال آديل هذا الصباح؟ هل ما زالت نائمة؟»

«لقد أخبرتك بأن آديل تظل نائمة حتى الساعة التاسعة».

«إنني أتبادل معك الحديث. هذا كل ما في الأمر».

«أوه...إنه ليوم جميل! ما خططك لهذا اليوم؟»

«إنني على موعد لمقابلة الوزير هذا الصباح. أما بعد الظهر، فإنني لا أدري ماذا أنا فاعل! ربما أقوم برحلة بحرية لمشاهدة الجزر. سأمكث أسبوعاً آخر هنا، أقوم فيه بزيارة الأماكن التي يتردد عليها السياح عادة.

تمتمت ربيكا قائلة:

«أسبوع آخر! وبعد ذلك ماذا ستفعل؟»

«سأقوم بزيارة باريس. لديّ شقة هناك تقع في الضواحي».

«ألديك بيت واحد فقط؟»

ابتسم ابتسامة شاحبة، ثم قال:

«بيت؟ قولي هل لديك وطن!» .

اتسعت عينا ربيكا، وقالت:

«طبعاً...أنت لست جاداً في كلامك».

«أنا جاد تماماً. لدي أربعة بيوت. هذا ما تبغين معرفته. أليس كذلك؟»

«إنني لا أهتم بما تملك، إذا كان هذا ما تشير إليه».

تردّد بيير، ثم تنهد وسألها:

«ألا تهتمين حقاً؟ إذا أنت فريدة في نوعك يا آنسة!»

تأملت ربيكا استدارة أظافرها. ثم سألت نفسها: لماذا لا تتركيه الآن؟ لماذا لا ترحلي قبل أن يتطرّق الحديث إلى أشياء أخرى؟ وشعرت به يتحرك. ويخطو خطوة واسعة نحوها، وقد ركز نظراته على رأسها المنخفض وبعد قليل قال لها:

«اغفري لي مرة ثانية. يبدو أنني أتفنّن في قول وفعل الأشياء الخاطئة!»

«الأمر لا يهم».

«من الواضح أنه لم يخطر ببالك أن لقاءاتنا المتكررة لا تعدو أن تكون مجرّد مصادفات».

تطلّعت إليه بعينين فزعتين، وقالت له:

«لا أعرف ما الذي تهدف إليه. أظن أنه من الأفضل لي أن أذهب!»

ندت صرخة من صدره وراح يمرر راحته فوق شعر رأسه، وهو يقول:

«أجل...أجل...اذهبي. هذا ما تعوّدت عمله عندما يتأزم الموقف بيننا، أليس كذلك؟»

عضت ربيكا شفتها السفلى، وقالت:

«إنني لا أرى أي هدف في هذا الحديث».

«هل هذا رأيك، أم أنك تخافين الاستمرار فيه؟»

تردّدت ربيكا ثم تنهدت وقالت:

«أعرف أنني أصبحت موضع اهتمام واحد يعد أقوى فرد في عائلة بيير سانت كلير، وأنني لا أرى أي هدف من وراء مناقشة ذلك. ماذا تريد مني؟ إنني لست واحدة من مجتمعك النسائي؟ ولست على استعداد لكي أبيع نفسي إلى الطبقة العليا...بل إنني لا أرغب في ذلك».

شحب وجه بيير، وقال:

«كيف تجرؤين على الحديث معي بهذا الأسلوب؟»

وفي الحقيقة، لم تعرف ربيكا بدورها كيف تحدّثت بهذا الأسلوب. لقد انطلقت الكلمات من فمها بلا تفكير، فشعرت بالخجل، وقالت أخيراً:

«آسفة...إنني آسفة، لست أدري ما الذي دهاني».

رمى بيير سيكارته تحت نعل حذائه، وقال:

«يبدو أن كلاً منا قد أخطأ في أحكامه، أقول لك، إلى الملتقى يا آنسة».

تركها فجأة. وسار على طول الشاطىء، وشعرت ربيكا بالتعاسة وودّت لو جرت وراءه، وتوسلت إليه أن يغفر لها، وقالت له إن عواطفها المضطربة هي سبب ما تفوهت به، وأدّت إلى نقطة الخلاف بينهما. ولكن كيف السبيل إلى الحديث معه؟ ربما لو تحدثت إليه لانفجر ضاحكاً منها. في أية حال، إنّ الأسباب التي يريدها من أجلها كانت تختلف عن الأسباب التي تريده من أجلها.

استنشقت نفساً عميقاً. وبدأت تسير على الشاطىء والتعاسة تملأ أعماقها، وتمنت في هذه اللحظة ألاّ تراه مرة ثانية. وكانت مواجهة هذه الحقيقة مفزعة لها. واستغرقت في أفكارها فلم تشاهد أبو جلمبو وهي تدوسه بقدمها. وانغرست أطرافه في جلدها، فأطلقت صرخة مدوية، وسقطت على الرمل، وهي ممسكة بقدمها المجروحة، وراحت تفحص ما أصابها. فرأت الدم يتدفق من التمزقات التي شقت الجلد. وامتزجت الآم جروحها بشعور الكآبة الذي كانت تكابده، فأطلقت العنان لدموعها تجري فوق خديها.

واستغرقتها هذه الحالة، فغطت عينيها بذراعها. فلم تلاحظ ظل شخص آخر يتقدم نحوها، وعندما أحست بوجوده تطلّعت ببصرها نحوه. ومسحت بسرعة آثار الدموع من فوق خديها.

وتطلّع إليها بيير وسألها:

«ماذا حدث؟ سمعت صرختك».

هزّت ربيكا رأسها، وقالت:

«لا شيء إطلاقاً».

جالت عيناه في أرجاء المكان، حتى وقع بصره على بقع الدم فوق الرمل. ومال بجسمه ورفع قدمها وفحصها فقالت له:

«أخبرتك بأنه ليس هناك شيء إطلاقاً. داست قدمي على أبو جلمبو».

قال لها:

«يجب أن تنظفي مكان الجروح ببودرة سلفا عندما تعودين إلى الفيللا».

ثم مال برأسه، وأخذ يمتص الدم من كل جرح ويبصقه فوق الرمل. وكانت ربيكا تراقبه غير مصدقة عينيها لما يفعله. وعندما انتهى، قال لها:

«ألا تعرفين أن هذه الطريقة هي أفضل وسيلة تمنع سريان السم في الجسم؟ أعرف أنها طريقة بدائية. إذا ما قورنت بخبرة ممرضة مثلك، ومع ذلك فإنها فعالة».

قالت له باستسلام:

«شكراً لك!»

أعاد بيير قدمها لتستقر فوق الرمل. ووجدته يجلس أمامها وراح يتطلع إليها وقد ارتسم على محياه تعبير غريب. سألها برقة:

«لماذا كنت تبكين؟»

هزّت ربيكا رأسها، وقالت:

«غباء مني. إنّ الجروح لم تكن بالخطورة التي كنت أتصورها».

«لا أعتقد أن هذا كان سبب بكائك. ألا يمكنك أن تكوني صادقة مع نفسك يا ربيكا؟»

تحرّك فجأة وحملها على ذراعيه، وقال لها:

«سأصحبك إلى الفيللا».

عارضته ربيكا، ولكنه تجاهلها. فاستسلمت. وشعرت بالفرح لقربه منها. وعندما اخترق بها المرج، وتوجه صوب المنزل لم يحاول أن ينظر إليها، ولكنها كانت تشعر بصلابة ذراعيه، ورحابة صدره، وحرارة جسمه.

سألها بصوت منخفض عندما وقف في وسط الصالة، قائلاً:

«أين غرفتك؟»

أشارت ربيكا إلى الممر. فقطع المسافة بخطوات واسعة. وعندما بلغا باباً،

أشارت إليه، فدفعه بيير ودخلا إلى الغرفة. فرأى الفوضى تشيع فيها. الفراش لم يسو بعد، والأغطية مدلاة من فوقه، والثياب مبعثرة. سار بيير نحو السرير ليضعها فوقه. فالتفت ذراعاها حول عنقه حتى يستقر جسمها بارتياح. وشعرت بجلده الناعم. وعندما حاول أن يستقيم بجسمه منعته.

وتمتم بصوت متهدج:

«اتركيني يا ربيكا».

وحاول أن يبعد ذراعيها من حول عنقه، ولكن أصابعها ازدادت تشبثاً به فاضطر أن يجلس إلى جوارها. كانت عيناه تكابدان العذاب وهو يحدق فيها، وفجأة مال برأسه نحوها... ومدّ يده التي راحت تتحسّس كتفهـا، ثم أخـذت تتلمّس طريقها إلى ذراعها وحين بلغت وسطها قامت بفك أزرار سترتها. وعندئذ ثارت مشاعرها، ولكن ما أثارها أكثر كانت رغبتها فيه، مثل رغبته فيها. وكانت لمسلته مدمّرة لحواسها، ولكنه انتزع نفسه منها فجأة. فشعرت بخيبة أمل.

ابتعد عنها، وأدار لها ظهره، وهو يهز رأسه قائلاً:

«لا...لا...يجب ألاّ أرتكب إثماً».

حملقت ربيكا في ظهره، وتجهّم وجهها، وعندما استدار وتطلع إليها قال:

«ربيكا...يجب أن أرحل».

ارتكزت ربيكا على مرفقيها، فبدت مثيرة، وتمتمت قائلة:

«هل تفر هارباً يا بيير؟»

هزّ كتفيه، وراح يتفرّس فيها بعينين نهمتين، وقال:

«أجل...أجل. إنني أفر...إنني لا أستطيع أن أدمر مثل هذه البراءة».

ازداد تجهم ربيكا، وانزلقت من الفراش، وقالت له:

«بيير...بيير...إنني أعرف ما أفعله!»

تطلع ببصره نحو السماء، وقال:

«أرجوك يا ربيكا لا تجعلي الأمر يبدو قاسياً على نفسي أكثر مما كان. لأول مرة

في حياتي بعد سنوات عدّة عشتها مع امرأة كنت أكرهها، واحتقرها، أتيحت لي الفرصة لأن أجد شيئاً جميلاً. شيئاً جديراً بتقديري، ولكن يا إلهي...لا أستطيع أن أناله».

واستدار فجأة ليغادر الغرفة، وهو يقول:

«يجب أن أرحل...إن آديل سوف تستيقظ حالاً...وإذا عثرت عليّ هنا».

قاطعته ربيكا وقد أمسكت بذراعه وجذبته نحوها، وتمتمت قائلة:

«بيير...عمّ تتحدّث؟ إنني لم أطلب منك شيئاً، ولا أتوقع منك شيئاً».

أمسك بكتفيها وهزّها برقة، قائلاً:

«لم لا تحاولين الاتصال بي؟ إننا لا نستطيع أن نناقش الأمر الآن. ليس هناك متسع من الوقت. إنني أحتاج إلى وقت لكي...لكي...»

صمت ثم هز رأسه واستطرد قائلاً:

«قابليني الليلة...سوف نتبادل الحديث».

«حسناً...ولكن كيف نلتقي؟ اقصد كيف يحدث ذلك بدون أن تعلم آديل؟»

«سأحضر إلى هنا...سنلتقي على الشاطىء...التاسعة. ما رأيك؟»

بلعت ربيكا ريقها وقالت:

«لا بأس».

وهبها ابتسامة رقيقة...ثم أمسك بها وضمها إلى صدره، وهمس في أذنها قائلاً:

«أنت تستحقين كل الحب. أحبك».

وبدون أن يتيح لها الفرصة لأن تتفوه بكلمة. انفلت خارجاً من غرفتها.

وبعد رحيله، سارت ربيكا معتمدة على ساقيها المضطربتين لتغلق الباب، واستندت بظهرها عليه. وراحت تستعيد الأحداث التي مرت بها سريعاً. وتساءلت ماذا يعني كل هذا؟ ماذا يعني بيير بالنسبة إليها؟ وهل الكلمات الأخيرة التي فاه بها جاداً تماماً؟ قال لها أحبك. هل هذا محتمل حدوثه؟ هل أحبها؟ وإذا كان يحبها، فما الذي يضمره لها؟

اتجهت مذهولة إلى طاولة الزينة. وتطلعت إلى الساعة التي كانت تشير إلى الثامنة والنصف. حان الوقت لارتداء ملابسها وإعدادها طعام الافطار، وإلا فإنّ روزا ستبدأ في التسائل إذا ما تأخرت عن موعد الحضور. وبدت لها الساعات التي تفصل بين الوقت الحالي والساعة التاسعة مساء طويلة. وكان السبيل الوحيد لكى يمر الوقت سريعاً هو أن تغرق نفسها في الأحلام!

٤ ـ الحقد حلم جنوني

لم تكن روزا في المطبخ عندما دخلته ربيكا، فانتابتها الحيرة. لأنها اعتادت أن ترى مدبرة المنزل في مثل هذا الوقت من الصباح تعدّ صينية طعام أديل. وكانت كل الدلائل تشير إلى أنها كانت موجودة منذ لحظات، ولا بد أن تكون قد خرجت لشراء الخضراوات. ولذلك قررت ربيكا أن تصبّ لنفسها فنجاناً من القهوة. وجلست إلى المائدة تحتسيها في الوقت الذي أقبلت فيه روزا من البهو.

ابتسمت ربيكا وقالت:

«صباح الخير يا روزا».

ولكن روزا لم تبادلها الابتسامة، وإنما قالت لها على الفور:

«صباح جميل يا آنسة. هل أعددت قهوتك؟»

«أجل...شكراً. لقد افتقدت وجودك...ولذلك أعددت القهوة بنفسي».

ولكن ربيكا وجدت أن روزا مشغولة عنها، فقالت:

«هل حدث شيء؟»

جالت روزا ببصرها في المكان. والقلق باد على محياها، وأخيراً قالت:

«ليس تماماً يا آنسة. كل ما في الأمر أنني حملت صينية الافطار إلى الآنسة أديل».

اصطك فنجان القهوة بالطبق في يد ربيكا، وسألت:

«تقولين ماذا فعلت؟»

«أقول إنني حملت الصينية إلى الآنسة آديل. لقد طلبتها».

هزّت ربيكا رأسها مستفسرة:

«هل طلبتها؟»

«أجل يا آنسة. في باديء الأمر ظننت أنك موجودة في صحبتها. ولكن الآنسة آديل جاءت إلى المطبخ. على كرسيها المتحرك».

وقفت ربيكا مأخوذة، وقالت:

«جاءت إلى المطبخ على كرسيها المتحرك! آسفة يا روزا إذا كنت أبدو لك حمقاء، ولكن ما فعلته آديل لم يحدث من قبل. منذ أن أتيت إلى هنا».

«أعرف يا آنسة. لقد دهشت أنا بدوري. أظنّ أنها استيقظت».

استغرقت ربيكا في التفكير. وفجأة لاحت لها أمور شتى، فسألت:

«متى...متى حدث ذلك؟ ومتى جاءت إلى المطبخ؟»

«أظن منذ خمس عشرة...أو عشرين دقيقة».

«خمس عشرة أو عشرين دقيقة!»

قالت ذلك ثم أغلقت عينيها لفترة طويلة...وعندما فتحتها ثانية كانت روزا تراقبها عن كثب. وعندما شعرت ربيكا بقلق روزا، رسمت ابتسامة شاحبة على شفتيها وقالت:

«كل شيء على ما يرام يا روزا. كنت أفكر. هذا كل ما في الأمر. هل قالت لك الآنسة آديل شيئاً عندما حملت إليها الصينية؟»

«لا يا آنسة. لقد جاءت لتقول لي. إنها تبحث عنك».

كان من الصعب على ربيكا العثور على أسباب لما فعلته آديل. وقد يقفز تفكير آديل إلى أحكام غير ضرورية. ولكن مهما يكن الموقف، فإنّ عليها أن تواجه آديل. وقبل كل شيء وبعده فإن أمراً سيئاً لم يحدث. هل حدث حقاً شيء سيء؟ لقد شجعتها آديل على الخروج مع بيير سانت كلير. هو بالتأكيد فإنها لا تستطيع أن تعترض، لأنه عاد بها من الشاطيء.

ولكن هل هناك شيء أكثر من هذا؟ هل رأتهما آديل أو سمعتهما وهما يعبران البهو؟ أو هل تبعتهم حتى غرفة ربيكا؟ وعند هذا التساؤل تورّدت وجنتاها. وحاولت أن تتذكّر هل كان الباب مفتوحاً أم كان مغلقاً. ولكنها تذكر الآن أنّ الباب كان مفتوحاً؛ لأن بيير دفع الباب عندما حملها إلى داخل الغرفة وتركه خلفه مفتوحاً. هزت رأسها. فإن أحداً منهما لم يلاحظ المتلصص الذي جاء هادئاً. وراح يراقبهما. انتاب ربيكا شعور بالغثيان، فأشاحت بوجهها عن روزا حتى لا ترى امتقاع وجهها. ولكنها وجدت أنه من السابق لأوانه التفكير في أشياء تتصور أن آديل وصلت إليها وأصدرت فيها أحكاماً. ولا يعني هذا أن آديل ستناقشها فيما رأت أو سمعت.

سارت ربيكا نحو الباب، وقالت وهي تغادر المطبخ:

«سأذهب لأتبين ما إذا كانت آديل قد انتهت من طعامها!»

وتوقفت ربيكا في الممر ثانية لتتساءل: لماذا تعذّب نفسها بهذا الأسلوب؟ وماذا يهم إذا كانت آديل قد رأتهما؟ لا شيء إطلاقاً قد حدث. لا شيء يمكن أن تخجل منه. على الأقل!

انتصبت بكتفيها وسارت عبر البهو صوب غرفة آديل، وبعد أن طرقت الباب، ودخلت، وجدت آديل جالسة على المقعد المتحرك، وتضع الصينية على ركبتيها. تطلعت إلى ربيكا بنظرة كلّها انتصار غريب، فابتلعت ربيكا ريقها قبل أن تقول:

«صباح الخير يا آنسة سانت كلاود».

وضعت آديل الصينية على الطاولة بجوار الفراش، ومسحت شفتيها بنشفة، وقالت:

«صباح الخير يا ربيكا. صباح جميل أليس كذلك؟»

ضغطت ربيكا على شفتيها، فقد كانت تحية غير عادية من آديل. وقالت:

«حقاً...إنه صباح جميل».

وتطلعت ربيكا حولها فرأت الستائر قد انفرجت قليلاً جانباً. فأزاحتها إلى منتهاها حتى تتيح لأكبر قدر من ضوء الشمس الدخول إلى الغرفة. وفي نفس الوقت استطردت قائلة:

«لقد استيقظت مبكرة هذا اليوم».

استراحت آديل بظهرها على المقعد، وقالت:

«أجل. لعل ضوء النهار أثارني. أو ربما شيء آخر. ألا تظنين ذلك؟»

سألتها ربيكا وهي تحاول الاحتفاظ بصلابة عودها:

«هل جذبت الستائر جانباً؟»

هزت آديل رأسها وقالت:

«أجل فعلت. ألقي نظرة خارجاً يا ربيكا. هل أدركت متعة المنظر الذي أتمتع برؤيته من هنا؟»

تطلعت ربيكا خارج النافذة، فرأت المرج المؤدي إلى الشاطىء. وكل من يجلس أمام النافذة يتمتع برؤية جمال منظر كل شيء، وكل إنسان يتحرك هناك.

واستدارت ربيكا وواجهت آديل قائلة:

«إنه منظر رائع».

«كثيراً ما جلست أمام هذه النافذة يا ربيكا. ليس دائماً في الصباح، ولكن أحياناً في أوقات أخرى. هذا الصباح كنت قلقة. ولذلك جلست هناك لفترة».

شعرت ربيكا بعضلات وجهها تتجمد، وقالت

«أوه...حقاً!»

«أجل ...رأيتك وأنت تتوجهين للسباحة يا ربيكا. كم أحسدك!»

لم تستطع ربيكا أن تتحمّل المزيد، فصرخت، قائلة:

«كفى...ماذا تحاولين يا آنسة سانت كلاود؟ أنت تحاولين قول شيء أليس كذلك؟»

«صدقيني يا ربيكا، أنت حساسة هذا الصباح. ماذا تظنين أنني أحاول قوله؟»

«هل انتهيت من تناول طعامك يا آنسة سانت كلاود؟ إذا كنت قد فرغت منه فسأحمل الصينية إلى المطبخ».

«مهلاً يا آنسة، تعالي واجلسي، أريد أن تخبريني بما حدث بعد ظهر الأمس؟»

حدقت ربيكا فيها بدهشة، وقالت:

«بعد ظهر الأمس؟ ماذا حدث بعد ظهر الأمس؟»

رفعت آديل حاجبيها وسألت:

«رحلتك مع بيير. أريد سماع كل ما حدث».

«لا شيء هناك يمكن أن أفضي به لك. أرجوك يا آنسة سانت كلاود. دعيني أحمل الصينية حتى تأخذي حمامك».

«فيما بعد يا ربيكا. أما الآن فإن لدينا أموراً يجب مناقشتها. حسناً يجب أن أقول لك بعض الأشياء عن بيير».

شعرت ربيكا بالمرارة وقالت بحزم:

«لا أريد الكلام عن السيد سانت كلير».

ضيقت آديل ما بين عينيها. وقالت:

«ومع ذلك. أريد منك أن تتحدثي عنه يا ربيكا، من أجل مصلحتك».

«ماذا تعنين؟»

«حسناً. إني أجرؤ فأقول بأنني أعرفه أكثر منك. وأتساءل هل كنت حمقاء إذ تركتك تتعرفين إليه!»

«أنت لم تسمحي لي بأن أفعل شيئاً. إنني وحدي أستطيع أن أتخذ قراراتي. شكراً لك».

«عجباً...عجباً. مسكينة جنيفر. فقد وثقت به بدورها. كما فعلت أنت».

ضغطت ربيكا على شفتيها وحدّثت نفسها بأنها لن تكون موضع تساؤل من أحد. وكانت آديل تراقب ملامح وجهها، واستطردت تقول:

«مسكينة جنيفر. لقد سبق أن حدّثتك عنها. أليس كذلك. أختي!»

«الأخت التي تزوجت بيير!»

«أجل. أختي جنيفر لم أرها منذ ثهانية أعوام».

وراحت ربيكا تجمع الأطباق جانباً فوق الصينية استعداداً لحملها، ولكن ما قالته آديل جعلها تتوقف فجأة وتنظر إليها بدهشة، وتتساءل:

«ولكنك قلت إنها ماتت؟»

اتسعت عينا آديل وتطلّعت إلى ربيكا بغضب وقالت:

«جنيفر؟ ماتت؟ متى حدث ذلك؟»

«أنت قلت لي هذا بنفسك!»

«أوه...لا...لا. إنني لم أقل ذلك».

«ولكنك فعلت ذلك. ألا تذكرين؟ كنا نتحدث عن بيير. ومسألة زواجه وأنت التي قلت إن شقيقتك قد ماتت».

«أوه أدركت الآن. لقد اختلط الأمر عليك. قلت إن شقيقتي ماتت. ولكنني لم أقل زوجة بيير. إنها ليست جنيفر، وإنما أقصد دنيس!»

وشعرت ربيكا بالغثيان يغور في أعماقها. إن بيير متزوج. إنه متزوج! لم تستطع أن تصدّق الحقيقة أو تقبلها. لقد كان الموقف سيئاً في يوم من الأيام عندما كانت تقدر الهوة الكبيرة التي تفصل بينهما، أما الآن فان الأمر يبدو رهيباً...مؤلماً...مدمراً.

حملقت ربيكا في وجه آديل وفجأة أدركت شيئاً...إن آديل تخطّط لأمر يدور في عقلها. إنها تعمدت إن تفضي لها بأمر زواج بيير، ومتى عرفت ربيكا ذلك سيكون وقعه مؤلماً عليها. لا بدّ أن آديل انتظرت حتى حدث ما حدث هذا الصباح. ولكن ربيكا لم تأبه كثيراً لما قد يترتب من نتائج...وصاحت قائلة:

«أنت رأيتنا هذا الصباح...أليس كذلك؟»

«رأيت من يا ربيكا؟»

«أوه...أنت تعرفين...أنت تعرفين. رأيتني مع بيير. ولكن متى؟ وأين؟»

ورفعت يدها ووضعتها على جبينها، واستطردت قائلة:

«لا يمكنك...لا يمكنك...»

ولكنها لم تلبث أن استدارت فجأة، ولم تستطع مواصلة الكلام! وبدت فرحة كريهة على وجه أديل التي قالت:

«لا يمكنني ماذا...يا ربيكا؟»

ودفعت المقعد المتحرّك حتى اقتربت من الفتاة المرتبكة. واستطردت تقول:

«سأخبرك. هل يجب عليّ أن أخبرك؟ لقد ظننت أنني لا أستطيع أن أدفع هذا المقعد المتحرك عبر الممر المؤدي إلى غرفتك. أجل غرفة نومك يا آنسة. لقد رأيت بيير عندك أنت مخطئة يا آنسة! إنني أستطيع التحرك!»

ضغطت ربيكا راحة يدها فوق فمها، وصرخت صرخة مكتومة:

«أوه!»

وبدت فرحة الانتصار على وجه أديل، وتابعت:

«أجل يا آنسة. راقبتك...وهذا أتاح لي أن أعقد عقداً جديداً مع الحياة. صدقيني».

قالت ربيكا مأخوذة:

«لم أبدأ بعد في فهم دوافعك. أنتُ شخصية ملتوية...شريرة!»

«ربما أكون شريرة...ولكني لم أعد أكترث لذلك!»

«ولكن ماذا جنيت من وراء كل هذا؟ فرصة لايلامي...أليس كذلك؟»

«إن تصرفي هذا لا يقارن بمعرفتك لهذا الرجل الذي هجرني للزواج من جنيفر، فهو لا يعتد بتصرفاته الآن...تماماً كما كان العهد به قديماً!»

«بيير؟ هل تعنين أنه هجرك؟»

«أخبرتك من قبل يا ربيكا عندما جاء بيير لأول مرة إلى هنا! ولكن جنيفر لم تتركنا وشأننا. وظنّ بيير أن داخلها ممتاز كمظهرها. ولكنه أخطأ.

واكتشف ذلك بنفسه، ومع ذلك تزوجها لأنها كانت حاملاً منه. ماذا كان يمكنه أن يفعل غير هذا؟»

هزّت ربيكا رأسها غير مصدقة ما تقوله المرأة الأخرى. إن الأمر يبدو أمام عينيها كابوساً يؤرقها. وأفاقت على صوت آديل وهي تستطرد قائلة:

«والآن...أنت تعرفين كل أبعاد القصة. مؤلمة، أليس كذلك؟ لقد كنت صغيرة، بينما كانت جنيفر أكبر مني قليلاً».

ولكن ربيكا لم تشعر بأي شفقة بالنسبة إلى هذه المرأة التي أعدت نفسها لكي تستخدمها للانتقام من شقيقتها، ومن بيير. ولم تحتمل أعصابها البقاء في الغرفة معها، فحملت الصينية وما كادت تندفع خارجاً حتى ترنحت قليلاً. ولكنها لم تلبث أن تماسكت وواصلت سيرها حتى بلغت المطبخ. وألقت بالصينية على المائدة، ثم تهاوت على المقعد. وجذب شحوب وجهها نظر روزا واهتمامها، فأقبلت عليها في قلق، وقالت صائحة:

«آنسة...آنسة! ماذا بك؟ هل حدث أمر سيء؟ هل أنت مريضة؟»

تطلعت ربيكا إلى وجه روزا الطيب الطبيعي، وسألتها:

«هل تعرفين أن السيد بيير سانت كلير متزوج؟»

قالت روزا وهي تشخص ببصرها تجاه الباب، وقد بدا صوتها كرجع الصدى:

«السيد سانت كلير...أنا...أنا...لا أعرف يا آنسة. إنني لم ألتق به من قبل الزيارة التي قام بها منذ أسبوعين».

«أدرك تماماً ما تقولين. هل لديك بعض القهوة، إنها ستفيدني قليلاً».

«طبعاً لدي بعض القهوة...انتظري قليلاً!»

واكتملت صورة ما حدث أمام عيني ربيكا. وهي تتناول عدة فناجين من القهوة. كان الموقف صعباً. والاضطراب بادياً عليها. حتى لاح لها الأمر في صورة حلم جنوني، وكان حقد آديل حقيقة بادية لها، واعتصر الألم المميت أمعاءها

عندما قدرت ما ينتظر علاقتها مع بيير سانت كلير من إخفاق وفشل!

ألهذا السبب سيطر على نفسه في هذا الصباح؟ ألهذا السبب اعتبرها بريئة؟ ألا يعرف أنها لم تكن على علم بأمر زواجه؟ أو أنه يظن أنها واحدة من ذلك النوع من الفتيات اللواتي يرغبن في الانغماس في العلاقات؟ ما رأيه؟ إذ كانت أديل قد تجنبت عن عمد أن تخبرها بأمر زواجه، فإنه كان من الأجدر بها أن تحمل بيير على أن يفضي بالأمر لها. ولكن ترى ماذا رأت هذا الصباح؟ وماذا كانت تصوّراتها عندما شاهدتها بين ذراعي بيير؟ هل تعتقد أديل أن علاقتها به تجاوزت الحد؟

دفنت ربيكا وجهها في راحتيها. وأقبلت روزا ولمست ذراعها برفق، وسألتها:

«ما بك؟ هل أستطيع مساعدتك؟»

«لا أحد يستطيع مساعدتي!»

ثم وقفت على قدميها...واستطردت تقول:

«سأخرج يا روزا، وفي وسعك أن تخبري الآنسة سانت كلاود بأنني سأعود بعد فترة لأحمل متاعي».

«هل أنت راحلة...يا آنسة؟»

عضت ربيكا شفتيها، وقالت:

«أجل أنا راحلة. حدث شيء ولا أستطيع البقاء هنا».

عقدت روزا ذراعيها فوق صدرها، وقالت:

«هل أنت واثقة مما أنت مقدمة عليه؟ إنّ الأمر يبدو غريباً بالنسبة إليّ. ألا يمكنك الانتظار قليلاً. يومين مثلاً...حتى تتدبري شأنك؟»

«لا أستطيع البقاء في هذا المنزل. عن إذنك. يجب أن أذهب لأبدل ثيابي».

وقبل أن تبدّل ثيابها، طلبت دكتور مانسون هاتفياً، وأخبرته بقرارها، الذي كان مفاجأة له، لأنها لم تقدم له تعليلاً لرحيلها المفاجيء. وطلبت منه أن يرسل

ممرضة أخرى تحل محلها. ثم طلبت بالتليفون سيارة أجرة. وسارعت بارتداء ثوب من القطن، أبرز رشاقة قوامها، وقامت بتسوية شعرها، وحزمت حقائبها. وعندما أصبحت مستعدة للرحيل، وقفت تنتظر وصول السيارة بفارغ الصبر. وأخيراً أقبلت وتوقفت أمامها. فسارعت إلى الارتماء على المقعد،وطلبت من السائق أن يتوجه بها إلى أحد الفنادق في سوفا. ولم تدهش كثيراً عندما وجدت نفسها تجهش بالبكاء، فأخرجت منديلاً، جففت به دموعها. ولكن ليس أمامها الآن وقت للدموع ويجب عليها أن تتخذ قرارها قبل أ ن تفقد الشجاعة على تنفيذه.

وكان فندق افينيدا يقع في شارع هادىء. وقد حجزت فيه غرفة لليلة واحدة، ثم طلبت المطار هاتفياً وسألت عن إجراءات الحجز إلى لندن. وتناولت طعامها في مطعم الفندق. وراحت تفكر في الطريقة التي يمكنها من الاتصال ببير. فهي لم تكن تعرف الفندق الذي يقيم فيه. وهناك عشرات الفنادق المتناثرة في أنحاء سوفا. ولمحها موظف الاستعلامات فسألها بأدب:

«هل يضايقك شيء يا آنسة ليندسي؟»

«لا شيء البتة. شكراً».

«ولكنني سمعتك تسألين عن ضيف لدى القس. هل حاولت الاتصال بفندق سوفا الجديدة؟ إن ضيوف القس يقيمون عادة هناك».

بحثت في الدليل حتى استطاعت أن تعرف رقم تليفون فندق سوفا الجديد، وأدارت القرص، فأجابت عليها العاملة قائلة:

«هل أستطيع أن أحمل إليه رسالة عند عودته؟»

ترددت ربيكا في الرد. فقد عرفت الآن أين يقيم بيير. وأخيراً قالت:

«لا...لا...ليس هذا ضرورياً».

«هل أخبره من تكون المتحدثة؟»

«ليس الأمر هاماً».

ووضعت السماعة. وعندما عادت إلى البهو، أعطت موظف الاستقبال مبلغاً

من المال، قائلة له:

«أشكرك...إنني ممتنة لك».

«إننا نحاول تقديم كل مساعدة ممكنة يا آنسة ليندسي».

غادرت ربيكا الفندق في الساعة الثانية بعد الظهر. كانت الشمس محرقة والشوارع أكثر هدوءاً، فأغلب الناس تهجع في هذه الساعة. أما ربيكا فلم تستطع أن تتذوق طعم الراحة، لذلك قررت أن تتجه نحو فندق سوفا الجديد الذي يقدم أعظم خدمة لعملائه من رجال الأعمال. وصعدت درجاته الرخامية، واخترقت البهو حتى بلغت موظف الاستقبال، الذي سألها:

«هل من مساعدة اقدمها لك يا سيدتي »

«أجل...سألت منذ قليل هاتفياً عن السيد سانت كلير فأخبروني أنه مدعو في الخارج لتناول طعام الغداء. هل عاد الآن؟»

«ما اسمك يا آنستي. سأعرف ما إذا كان السيد سانت كلير موجوداً، أم لا!»

«اسمي ليندسي».

«حسناً يا آنسة ليندسي. استريحي على مقعد. وسأرى إذا كان من الممكن الاتصال بالسيد سانت كلير».

هزّت ربيكا كتفيها، وسارت حتى جلست على مقعد. وبدا لها أن بيير موجود وإلاّ لأخبرها الموظف أنه ما زال في الخارج. وبعد لحظات قليلة أقبل الموظف وقال لها:

«السيد سانت كلير سيراك الآن يا آنسة ليندسي، إذا جئت معي؟»

نهضت ربيكا وسألته:

«أوه...ألن يأتي السيد سانت كلير إلى هنا؟»

«السيد سانت كلير سيراك في جناحه بالطبع!»

«بالطبع!!»

كانت ربيكا تدرك أن رجالاً أمثال بيير لا يقيمون في غرفة، وإنما

يشغلون جناحاً. واستقلت المصعد يصحبها الموظف حتى بلغت أحد الطوابق وغادرته لتسير في ممر حتى توقف الموظف أمام باب الغرفة. ثم انحنى وتركها. نظرت إليه حتى رحل عنها، وبإصرار طرقت الباب. وسرعان ما انفتح. ووجدت بيير أمامها. كان من الواضح أنه وصل لتوه، إذ بدت ربطة عنقه مفكوكة وقميصه مفتوحاً. تطلع إلى ربيكا في دهشة وتراجع إلى الوراء كأنه يدعوها إلى الدخول. فامتثلت لرغبته. وعندما جالت ببصرها في الجناح أخذت بجمال وروعة الأثاث. بينما راح بيير يلف حولها ليملأ عينيه منها بإمعان، فتورّدت وجنتاها. وعندما قارنت اضطرابها بفرط هدوئه وثقته الزائدة، أدركت حدود طاقتها على مواجهته، فأسرعت تقول بحزم:

«أنا...أنا آسفة لحضوري إلى هنا على هذه الصورة، ولكن. بما أنني سأرحل عن فيجي غداً فقد رأيت...»

ولم تستطع مواصلة كلامها...إذ قاطعها بيير فجأة، وهو يحدّق فيها بعينين ضيقتين، متسائلاً:

«تغادرين فيجي غداً؟»

«أجل...وبالرغم من كل شيء!»

«لحظة يا ربيكا. ابدأي الموضوع من البداية. أعني، لماذا ترحلين عن فيجي؟ من الطبيعي أنني أدركت السبب! لقد رأتنا آديل هذا الصباح. هل أنا على صواب؟»

«أجل، لقد رأتنا».

««هل فصلتك؟»

«لا. إنني راحلة برغبتي أنا!»

«ربي. ماذا حدث إذاً؟»

««بيير...أريد أن أعرف...هل أنت متزوج؟»

«أنت تعرفين أنني متزوج!»

شعرت ربيكا بالوهن يدب في ساقيها، وترنحت قليلاً. إذن إن أمر زواجه حقيقة. وإن آديل لم تكذب. فحملقت فيه بيأس. كيف يستطيع أن يقف أمامها هكذا ويصرح لها بحقيقة زواجه؟

وعندما رأى بيير امتقاع وجهها، مدّ راحة يده ووضعها وراء عنقها وجذبها نحوه وأدنى فمه منها. فاستجابت له! ولكن صلابة جسمه نفذت إلى أعماق ضميرها، فأفاقت من غفوتها، وسحبت جسمها بعيداً عنه، ومسحت شفتيها بيدها، وهزت رأسها، قائلة:

«لا...لا...ألا تفهم؟ إنني لم أعرف...إنني لم أتخيل أنك متزوج. ظننت أن زوجتك متوفاة!»

«ماذا تعنين أنك لم تعرفي بأمر زواجي؟ بالطبع أنت تعرفين. لا بد أن آديل أخبرتك بالقصة كاملة».

«هل هذا ما أخبرتك به؟»

وأطلقت ضحكة مريرة. واستطردت تقول:

«إنها ماهرة. عرفت كيف تدفع أحدنا للعب بالآخر».

أمسك بيير كتفيها براحتيه، وقال:

«عمّ تتحدثين! انظري إليّ يا ربيكا! ما الأمر؟»

«لقد أخبرتك بأنني لم أعرف أنك متزوج!»

«وهل يعني ذلك شيئاً كثيراً بالنسبة إليك!»

«يعني ذلك شيئاً بالنسبة إليّ؟ بالطبع يعني الكثير! بيير...بغض النظر عما تظن بي، فإنني لست من نوع الفتيات اللواتي يتورطن في علاقة مع زوج امرأة أخرى!»

«ربيكا. استمعي لي، إن زواجي لا يعني شيئاً بالنسبة إليّ. ألا تفهمين؟»

«كيف تقول ذلك لي؟ هذا...هذا الصباح رأتنا آديل. ولا أعرف ما الذي رأته، ولكنها شعرت بسعادة بالغة عندما أخبرتني بعدها بكل شيء كنت أريد معرفته

عنك».

«أدرك ذلك!»

«يجب أن تفهم تماماً ما قالته!»

«إنني أعرف جيداً. إن ما تقوله ليس مديحاً في شخص. وإذا كنت قد أتيت لسماع إنكاري لكل ما قالته أخت زوجتي. فإنني أخشى أن أكون قد خيبت ظنك».

«ألا تأبه لما قالته؟»

«كلا. فكل ما يهمني... كلامك!»

أومأت ربيكا برأسها في يأس، وقالت:

«ماذا أقول! أوه... بيير. لماذا أنت متزوج؟»

ترك بيير يده تنزلق على رسغها، وأجاب:

«سألت نفسي هذا السؤال عشرات المرات. منذ أن قابلتك. إنني أعني كل كلمة قلتها لك هذا الصباح يا ربيكا».

شدت يدها من قبضته، وقالت:

«لا... لا».

جال ببصره من رأسها حتى قدميها. وسألها:

«لا... ماذا؟»

«أنت متزوج يا بيير. لقد انتهت العلاقة بيننا».

قال وهو مقطب الجبين:

«أنت لا تؤمنين بما تقولين».

«يجب أن أؤمن بما أقول. أنت. لم تطلّق زوجتك».

«لم أطلقها لأنه لم يحدث الطلاق بين أفراد أسرتي».

«الآن فهمت!»

وفجأة أطبقت يده على مؤخرة عنقها، وراحت أصابعه تحل عقصة شعرها فاحتواه في راحته، وأمال رأسها، فارتجف جسمها بعنف. وأخذ بيير يئن مردداً:

«لا...لا...أنت لا تفهمين...دعيني أخبرك بكل شيء عن زوجتي. عن جنيفر».

أغمضت ربيكا عينيها في ألم وهي عازفة عما يبديه لها من حب رقيق وأخيراً انفلتت من بين يديه، وقالت:

«إن آديل أخبرتني بكل شيء عن جنيفر».

«وماذا قالت عني؟ أنت تفضلين تصديق كلامها عن كلامي. أليس كذلك؟»

«وماذا يقال؟ أنت متزوج. كم أتمنى لو كنت لم تأت إلى فيجي».

وبدت القسوة على وجهه وكأن ربيكا قد لطمته على رأسه. فسار متجهاً إلى النافذة ووقف أمامها وظهره لربيكا التي هزت رأسها في يأس. وسألت نفسها: ما السبب الذي يدفعها إلى أن تشعر بأنها مذنبة؟

وأخيراً أدار بيير ظهره، وقال بصوت بارد:

«هل قلت...إنك راحلة؟»

«أجل».

«إلى أين أنت راحلة؟ إلى إنكلترا؟»

«بالطبع».

ردّد كلمتها بلا وعي:

«بالطبع! هل تنوين الالتحاق بوظيفة أخرى؟»

«في مستشفى. إذا استطعت الحصول على وظيفة فيها».

وخيم الصمت عليهما. وبدا كل واحد غريباً عن الآخر. يتبادلان حديثاً تافهاً. وأخيراً قال:

«من المفروض أن اتمنى لك حظاً سعيداً. هل تنوين رؤية آديل ثانية؟»

«لا...سأتحدث إلى روزا هاتفياً لتحزم حقائبي. وترسلها لي».

سألها بوحشية:

«أخبريني. هل تهربين دائماً من مشاكلك؟»

ارتجفت ربيكا وتساءلت: ماذا تستطيع أن تقول؟ وكيف يمكنها أن تجيب

على مثل هذا الاتهام؟ في أي حال إنها الحقيقة التي لا مفر منها. لقد هربت من قبل...من بيتر فيلدمان. واستدارت تسير نحو الباب تقول:

«يجب أن أرحل الآن».

«أجل. اذهبي الآن! اخرجي من هنا!»

٥ ـ وقت خاص للبكاء

اخترقت ربيكا فناء مستشفى بارثولوميو، التي بنيت حديثاً في لندن وتميزت بأروقتها النظيفة الملساء والمروج المحيطة بها.

حيّت ربيكا العاملين بالبهو. ثم اتخذت طريقها إلى مكتبها المجاور للعنبر رقم ١٥. لتحل محل الأخت آنيت فليمنغ التي ابتسمت لها قائلة:

«كل شيء هادىء في الجناح الغربي. كم أنا سعيدة أنك هنا. إنني متعبة!»

«يجب أن تتوجهي إلى فراشك، بدلاً من أن تمضي نصف يومك مع باري موريسون، ألا يعرف أن ممرضات الخدمة الليلية في حاجة إلى النوم؟»

«أجد صعوبة في النوم خلال النهار، مادام جرس التليفون يواصل الرنين وتثاءبت، ورفعت يدها لتغطي فمها، ثم استطردت تقول:

«أنت تعرفين طبيعته».

التقطت ربيكا من آنيت لوحة تسجيل حالة المريض اليومية، ثم قالت بجفاء:

«لحوح! يجب عليك أن تخبريه بأن يتمسك بأهداب الصبر!»

وضعت آنيت عباءتها على كتفيها، ثم قالت:

«هناك القهوة، إذا كنت ترغبين في احتساء فنجان منها. إن السيد هاليداي أمضى ليلة هادئة. والسيد بورتيوس قادم هذا الصباح لرؤية السيد ويلسون بنفسه».

تجهمت آنيت، وتطلّعت إلى ربيكا التي راحت تدوّن التقارير، ثم استطردت قائلة:

«على فكرة، ذلك الولد دافيد فيليس كان طيّعاً هذا الصباح».

«حسناً. هل تظنين أن أمه سوف تأتي لرؤيته اليوم؟ ولد مسكين! إنها لا تكترث كثيراً لما يحدث له».

«أظن أن أماً لأربعة أطفال، وبلا أب يأتي بقطع الحلوى، لا تعتبر حياتها نزهة خلوية».

«إنها حقاً ليست نزهة خلوية. ولكن أين يوجد هذا الأب؟»

ابتسمت بمرارة، وقالت:

«لا تسأليني يا عزيزتي. إنه لا يتخذني موضعاً لثقته. انسي الأمر. إننا لا نعمل هنا مصلحات اجتماعيات، وإنما ممرضات. بحق السماء! كدت أنسى. لقد جاءتك مكالمة تليفونية قبل أن تدخلي الغرفة».

تطلعت إليها ربيكا لاهثة الأنفاس:

«لا تقولي إن بول فيكتور طلبني ثانية».

«إنه هو!»

وتهاوت ربيكا على المقعد، وسألت:

«لماذا يصر على طلبي بالتليفون؟»

«أظن أنه يحبك!»

«إنني أكبر منه بست سنوات».

«حبيبتي، لا تخبريني بذلك، وإنما قولي له هذا».

«سأخبره. لماذا أسمح لنفسي بالخروج معه؟»

قالت آنيت بصراحة:

«لأنه وسيم... ويحبك!»

«إنه صبي!»

«صدقيني، أنت غبية يا ربيكا. ويجب عليك أن تكوني حازمة. فأنت تتساهلين معه، وتساهلك لا يجدي. ألا ترين ذلك؟»

«إنني معجبة به. هذا كل ما في الأمر. ولكنه جاد قليلاً في عاطفته نحوي، في الوقت الذي أدرك فيه الهوة التي تفصل بين عمرينا!»

تحركت آنيت متجهة إلى الباب، وهي تتطلع إلى ربيكا في شك:

«إنها ليست مسألة فارق السن، ولكن هناك شيء آخر. هذا الشيء يمنعك من أن تتخذي موقفاً إيجابياً تجاه أي رجل يلاحقك».

انحت ربيكا فوق التقارير، وقالت:

«ما العمل، يا آنيت!»

«لا شيء! إن آجلاً أو عاجلاً سوف تتخذين قرارك تجاه شخص بجدية!»

«لماذا أتخذ قراري؟»

«أنت ترغبين في الزواج. وفي أن يكون لديك أطفال أليس كذلك؟»

هزت ربيكا كتفيها، وقالت:

«ربما لا أكون من النوع الذي يصلح للزواج!»

«بالطبع. أنت من النوع الذي يصلح للزواج بحق السماء. ألم أرك في صحبة الأطفال الذين يقيمون في عنبر ٦؟ أنت تماماً من هذا النوع!»

«ألا تنوين الرحيل؟»

ضمت آنيت عباءتها حول جسمها، وقالت:

«أنت دائماً ساخطة. هل تعرفين ذلك؟»

ابتسمت ربيكا وقالت:

«أعرف ذلك».

تطلعت آنيت إليها فترة وجيزة، ثم غادرت للغرفة. وبعد رحيلها ذهبت

ربيكا لتعد لنفسها فنجاناً من القهوة. وبينما هي تحتسي قليلاً منها، راحت تفكر في بول فيكتور مرة ثانية. إنه كما قالت آنيت شخص لحوح، وبرغم أن ربيكا معجبة به، إلاّ أنها كانت تتمنّى أن يعرف أنه يبدّد وقته معها هباء. وفي وسعه أن يلتقط من يشاء من الممرضات وهو يقوم بدراسة الطب هنا في مستشفى بارثولوميو. ولكن لسبب غير مفهوم اختارها هي بالذات. كان طويلاً، نحيلاً، جذاباً. تعرفّت إليه من خلال آنيت و باري موريسون الذي كان يكبرها بعدة سنوات، ويعمل مديراً للمستشفى ويعرف بول منذ أيام الدراسة. وكان قد دعاها و آنيت و بول لتناول العشاء معه ذات مساء. وقد حققّت الدعوة نجاحاً كبيراً في التقارب بينها وبين بول، إذ قبلت دعوته للخروج معه وحدها في ليلة أخرى. وقد أدركت ألاّ جدوى من الخروج مع أحد، وحاولت أن تؤكد قرارها لبول، فقد أصبحت ببساطة لا تهتم بالرجال، وتتمنّى ألا يهتموا بها.

وفي ساعة متأخرة من النهار، رافقت الجرّاح بورتيوس في جولة بالعنبر عندما التقت ببول فيكتور. كان واقفاً مع زملائه طلبة الطب، فلوّح لها بحماسة من وراء ظهر بورتيوس، مما أشاع شعوراً عاماً من المرح بين الطلبة. فضغطت ربيكا على شفتيها. نافدة الصبر. وقد أدركت أن آنيت كانت على حق عندما أشارت عليها بأن تكون حازمة مع بول، وتخبره بأن يقطع علاقته بها.

وعندما رحل الجراح، وعادت ربيكا إلى مكتبها، وراحت تتحدّث إلى هيئة الممرضات، سمعت طرقاً على الباب، فتوجهت رئيسة الممرضات جانيت ويليامز لتفتحه، فاتجهت نظراتها إلى ربيكا وقالت لها بارتباك:

«إنه السيد فيكتور».

نهضت ربيكا من مقعدها غاضبة، وصاحت قائلة:

«بول، يجب أن تتوقّف عن هذا المسلك!»

تردّد بول، ودخل الغرفة وهو ينظر لرئيسة الممرضات ويليامز ثم قال:

«ربيكا... أريد أن أراك. ألم تبلغك مكالمتي التليفونية؟»

«أجل. بلغتني رسالتك. ولكن الأمر الذي لا تدركه هو أننا هنا في مستشفى وليس في مركز مقابلات».

«رويدك. لا تكوني عنيفة. متى يمكنني رؤيتك؟»

«لقد أخبرتك يا بول. إنني لا أستطيع رؤيتك. ليس لديّ الوقت».

امتقع وجهه. كان صبياً وسيماً، شعره أسود، وعيناه زرقاوين وأغلب الممرضات كن يرينه شاباً مغرياً، ولكن ربيكا كانت مجروحة من تجربة سابقة منذ ثلاث سنوات من هذا النوع العاطفي.

سألها:

«لماذا؟ لقد انتهت ورديتك في السابعة والنصف. ألا نتناول سوياً شراباً؟»

ووجدت أنه من الصعب عليها أن تتحدث معه أمام جانيت ويليامز. فتنهدت وقالت له:

«حسناً. حسناً. سنتناول شراباً. سأضطر إلى الرجوع إلى شقتي لأبدل ملابسي وسأقابلك في الغريديرون في الثامنة والنصف».

وأشرق وجهه بالضياء وقال:

«عظيم! سأراك!»

واختفى من الغرفة، وأغلقت جانيت الباب وراءه بحزم، وألقت نظرة على ربيكا. فرأتها تهز رأسها يائسة!

قالت ربيكا:

«ماذا في وسعي أن أفعل؟ إنه شخص يصعب التعامل معه!»

تنهدت جانيت وقالت:

«أظن انه وسيم لماذا لا ترغبين في الخروج معه»

«لا أعرف، أعتقد أننا مختلفان، فضلاً عن أنني أكبره سناً»

«إن السنوات لا تعني شيئاً هذه الأيام، إنني لن أدعها تعترض طريقي، ما دمت أميل إلى الشخص».

«ليس الأمر بهذه الصورة، إنني لا أرغب في التورط مع أي شخص!»

«أنت تفعلين ما هو أسوأ. يقولون إن أسرته تعوم في بحر من المال».

مالت ربيكا برأسها، وقالت:

«المال لا يثير اهتمامي!»

«أحقاً ما تقولين؟ إنني أتساءل... لماذا؟»

«أوه، بحق السماء، دعينا نغيّر الموضوع، هل هذا ممكن؟ كفاني الحديث عن بول فيكتور، في الوقت الحاضر!»

كانت شقة ربيكا، تقع بالحي القديم، في الطابق العلوي لأحد المساكن المشيدة على الطراز الفيكتوري، وكان الدفء والهدوء يغريانها بأن تقيم فيها بعد يوم كله إجهاد. وباختصار، كان البيت الذي تجد فيه ربيكا نفسها.

وخلال السنوات الثلاث الماضية، كانت في حاجة إلى مرفأ. لقد عرفت في غضونها الكثير عن نفسها. وكانت تحتاج إلى وقت كبير لكي تتغلب على المحنة لأليمة التي مرت بها في فيجي. وأطلت على الماضي، فوجدت أن آديل في حاجة إلى الشفقة. كما أنها تجد من الصعب عليها التفكير في علاقتها ببيير سانت كلير بأية صورة من الصور. لقد بذلت جهداً لنسيانه وساعدها عملها على لك. ومع ذلك، فهي لا تنكر أنها ظلت تكابد آلام المحنة وهي مستلقية على راشها في الظلام.

وأعدت لنفسها شطيرة خلال الفترة التي كانت تستعد فيها لمقابلة بول، فحصت ثيابها ولما كانت ليالي أكتوبر باردة فإنها اختارت ثوباً أزرق اللون تتخلل قماشه خيوط من الصوف يبعث الدفء في جسمها، وأرسلت شعرها

الطويل على كتفيها. فبدت أطرافه ملتوية خفيفاً إلى أعلى. وكان مكان اللقاء يقع في منتصف المدينة، ويعد واحداً من الفنادق التي تقدم الوجبات السهلة، وعندما دخلت ربيكا إلى البهو. وجدت بـول جالساً. ودعاهـا للجلـوس فامتثلت لأمره وهي تتغاضى عن عينيه الزرقاوين اللتين راحتا تتفرسان فيها من رأسها إلى قدميها. وطلب لها بول شراباً، بينما قالت هي:

«إنني أحب هذا المكان. وأنت؟»

هز بول كتفيه وقال:

«حسناً. وإن كنت أفضل الذهاب إلى برينس إدوارد لتناول الطعام هناك».

«أظن أنك لم تفهم أنني رتبت لقاءك هذا المساء، حتى أستطيع أن أطلب منك على انفراد بعيداً عن مكتبي بالمستشفى بأن تتوقف عن مضايقتي!»

اتكأ بول بمرفقه، وارتكز بذقنه على راحته وتأملها ملياً، وقال:

«أنت لطيفة للغاية!»

«حسناً. صدقني يا بول. أن تتكلم هاتفياً ست مرات ليلة أمس، وجئت بنفسك هذا الصباح، بدون أن تضع في اعتبارك من من الأشخاص قد يكون موجوداً في مكتبي! ماذا كنت تفعل لو كان موجوداً السيد بورتينوس أو السيد لاتيمر فضلاً عن الدكتور هاردي!»

«كنت سأختلق قصة تتلاءم مع أكثر العقول شكاً».

ارتشفت ربيكا شرابها، وقالت:

«ألا تهتم كثيراً بما طلبته منك. بألاّ تقابلني ثانية!»

«لا يهمني كثيراً. إن ما أعرفه الآن هو أنك موجودة الليلة معي».

«بول، أريد أن تعرف شيئاً، وهو أنني أكبر منك بست سنوات تقريباً. وليس هناك شيء مشترك يجمع بيننا!»

«هل هذه هي الحقيقة؟»

«حسناً. أريد منك أن تكفَّ عن مطاردتي. إنني معجبة بك. وأظن أنك صبي وسيم. ولا أريد أن تتورّط مع أي شخص آخر».

«هذا ما أسمعه دائماً. دعينا من هذا وأخبريني. إنهم يقولون أنك خضت تجربة حب غير سعيدة. هل هذا صحيح؟»

«من يكون هم؟»

«الناس. وأغلبهم من الرجال!»

هدأت أنفاس ربيكا، وقالت:

«من المؤسف أن هؤلاء الرجال إذ عجزوا عن فعل شيء، فإنهم يتندرون بالحديث أكثر مما تفعل النساء!»

«بعضهم يفعل، وبعضهم الآخر لا يفعل. ولكني لا حظت أنك لا تنكرين الواقعة».

«ولماذا أنكر؟ إنه أمر لا يخصك. مهما كانت حقيقة الواقعة، فإنني لن أحاول إرضاء فضولك».

«حدثيني عن نفسك. إنني مهتم بك، ولست فضولياً».

«ليس هناك شيء أخبرك به. إن المكان بدأ يزدحم بالوافدين. أليس كذلك؟»

«إذاً دعينا نذهب لتناول طعام العشاء».

«لست أنوي الرحيل معك إلى أبعد من باب هذا الفندق!»

تنهد بول وقال:

«لماذا؟ ماذا يعيبني؟»

«لا شيء! ليس هناك عيب فيك. ببساطة، أنت تبدّد وقتك هباء معي».

وعندما نطقت بذلك، انتابها إحساس غريب ينذر بالشر، فقد سبق أن قالت هذه الكلمات من قبل. لبيير سانت كلير!

مال بول نحوها وقال:

«دعيني أكون أنا الحكم. ليس هناك رجل أخر في حياتك. أنا أعرف ذلك. دعيني أنعم بصحبتك. ولن أسألك أن تمنحني شيئاً لا ترغبين في إعطائه».

سألت نفسها: لماذا لا تقبل صداقته؟ بعد أن كشفت له عن موقفها بوضوح.

تنهدت وتطلعت عالياً، ثم قالت:

«حسناً. يا بول».

«حسناً. ماذا؟»

«حسناً. سأتناول طعام العشاء معك».

«أحقاً ما تقولين؟ هذا رائع».

أمسكت ربيكا بذراعه، وقالت بهدوء:

«فقط بشروطي».

هز بول رأسه، وقال:

«موافق».

أمالت ربيكا رأسها وفكرت. إنها لم ترتكب وزراً. إذاً... علام الشعور المنذر بالشر يتزايد في داخلها. إنه مجرد إحساس ، ولكنها لا تستطيع أن تجد له سبباً. هل يعزى ذلك إلى أنها استعادت أحداث فيجي أمام عينيها؟

ولدهشة ربيكا. حققت صداقتها مع بول نجاحاً طيباً. ولم ير أحدهما الآخر في كثير من الأحيان، وإنما تركا مقابلاتهما تبدو طبيعية. وكان هو قارئاً مجيداً، وميولهما الأدبية متشابهة. وفي الصيف يمارس التنس والسباحة كما تمارسها هي ايضاً. وأخبرها أنه زار مع أبيه أغلب دول العالم واستمتع بدفء الشتاء فيها، في حين أن ربيكا لم تشر في حديثها معه إلى الفترة التي أمضتها في فيجي، وإن كانت هي قد حدثته كثيراً عن نفسها. وكان بول يقوم أحياناً بزيارتها في شقتها وقد حرص كل منهما على تجاهل كل التقولات التي يتغامز بها بعض الزملاء في المستشفى. فيما عدا آنيت فليمنغ، فقد كانت وحدها تعرف

حقيقة العلاقة. وشجعتها عليها لأنها كانت تدرك أن بـول قد يهزّ مشاعـر ربيكا ويدفعها بعيداً عن حياة العزلة التي تحياها.

وذات ليلة، التقى بها بول في سيارته عقب خروجها من العمل، وكانت أمسية ممطرة من أمسيات نوفمبر. والسماء تنذر بتساقط الثلوج. فاتفقت معه على تناول العشاء قبل أن يتوجّها إلى السينما، وأمام طبق من اللحم والبطاطا، قال لها بول:

«اكتشفت اليوم أن ممرضة خالتي تعرفك».

فزعت ربيكا وقالت له:

«ممرضة خالتك! من هي؟»

«شيللا ستيفنز».

وتعجبت ربيكا فلم تتذكّر في البداية أنها تلك الفتاة التي شاركتها العيش في شقة واحدة. الفتاة التي كانت ستتزوج بيتر فيلدمان. هزّت ربيكا رأسها غير مصدقة، وأفاقت من شرودها. وسألته:

«كيف حالها؟»

«بخير. كنت أتحدث معها عن عملي في المستشفى، وجاء ذكر اسمك في معرض حديثي، وأخبرتني أنها شاركتك المعيشة في شقة واحدة».

تردّدت ربيكا قبل أن تقول:

«أجل ... أشتركنا سوياً في شقة واحدة. أظنها قد تزوجت!»

«لا أعرف تماماً. إنني ألتقي بها بين الحين والآخر. إنها فتاة طيبة».

أسندت ربيكا رأسها على راحتها، وقالت:

«هي كذلك. إنه عالم صغير! شيللا ستيفنز. كم أودّ رؤيتها!»

«وهي ترغب في رؤيتك أيضاً! أخبرتها بأنني سأرتب هذا اللقاء»

«إنها فكرة طيبة منك».

«إذاً من الأفضل أن تحضري إلى بيتي».

حدّقت ربيكا في وجهه، وسألت:

«بيتك!»

«طبعاً. إن خالتي تعيش معي، ومع أبي، أمي ماتت. لقد أخبرتك بذلك».

«أعرف، ولكن لا يمكنني الحضور إلى بيتك، أعني، شيللا ممرضة خالتك».

«هذا أمر لا يهم».

«إنه يهمني ... يا بول، إن لديّ شقة، وفي وسعها أن تأتي عندي».

«ألا ترغبين في رؤية بيتي؟»

«لا تكن غبياً. إنني أعرف أن بيتك يقع على بعد أميال كثيرة من الجانب الآخر من لندن».

«وماذا في ذلك؟ لديك بضعة أيام أجازة. يمكنك أن تقضيها بعيداً عن لندن. أنا أحب أن تأتي معي».

رأته ربيكا يهيب بها بألاّ ترفض طلبه، فتنهدت وقالت:

«صدقني يا بول. ظننت أنك تعرف أنّ علاقتنا...»

توقف عن مواصلة الحديث عندما أخرج بول سيكارة أشعلها، وأطلق حلقات الدخان من فمه، قائلاً لها:

«إنني أعرف كل شيء. كل ما أريده منك أن تأتي معي. بحق السماء، ما الخطأ في مسألة حضورك؟ أنت تعرفين بأنني لا أخدعك. إن صديقتك هناك في بيتي!»

ضغطت ربيكا شفتيها، وقالت غير مطمئنة:

«إنني أصدقك، ولكن. إنه...حسناً، أسرتك».

«ستكون هناك خالتي فقط أبي مسافر إنه يمضي أوقاتاً قليلة في انكلترا. كما أنني أحب أن تشاهدي البيت الذي اشتراه أبي منذ خمس عشرة سنة. البيت على طراز عصر جورج الخامس. ويعد تحفة فريدة مشيدة على الأرض».

«إنني لا أعرف يا بول. ولكنني سأكره أفراد أسرتك. إذا لاح في عيونهم انطباع خاطىء تجاهنا».

«ولماذا يفعلون ذلك؟»

«لا أعرف. وإنما أشعر».

وصمتت قليلاً. ثم استطردت تقول:

«لو كنت تعيش في كريكلوود، لما اكترثت كثيراً، ولكن أن تكون صاحب بيت من طراز جورج الخامس!»

«انتظري يا ربيكا. ماذا أفعل إذا كانت أسرة أبي وأسرة أمي قد حققتا ثروة طائلة من الصناعة؟ إن وجه العملة لا يعنيني كثيراً؟ ولذلك تركت المنزل ونلت شهادة الطب. إن الطبيعة والكيمياء يستهويانني. التحقت بالجامعة. وأنا أرغب في أن أكون طبيباً. وليس مجرد ممارس عام، وإنما اخصائي. أنا مهتم بأمراض الأطفال. أقول لك ذلك حتى تعرفي بأنني أذهب بك إلى سان سوسي لكي اعمي بصرك بثروتي وممتلكاتي. أو أحاول اقناعك بالوسائل المادية».

«أنا آسفة. سأذهب بالطبع ولكن سان سوسي. أي بدون متاعب. هذا الاسم غير مألوف!»

ارتشف بول بقية الشراب، ثم قال:

«إنها فكرة أمي. هذا الاسم يماثل تماماً وجهة نظرها في الحياة».

أحست ربيكا في صوته وهو يتحدّث إليها، وشعرت بالشفقة نحوه. وكان من الواضح أنه يعيش في بيت لا تكتنفه أسباب السعادة برغم توفر أسباب الرفاهية!

بعد أسبوع. استقلا السيارة إلى سان سوسي. وقد خصصّ إجازة نهاية الأسبوع لكي يمضيها بصحبة ربيكا. ومن المحتمل أنه قد خططّ من أجل قضاء الليلة في بيته. ولكن مهما كانت مراميه، فإن ربيكا عقدت عزمها على

العودة في نفس الليلة، أو إذا اقتضت الظروف فسوف تستأجر غرفة في فندق لتنام فيها ليلتها.

وعندما بلغا قرية لينسلو، سارا في طريق خاص حتى بلغا باباً حديدياً مكتوباً عليه خاص، فتوقف بول وغادر السيارة وفتح الباب الحديدي، ثم عاد وقاد السيارة إلى الداخل، وتوقف ثانية ليغلق الباب وراءه. وحينما استقر وراء عجلة القيادة لينطلق بالسيارة في الممر الخاص، قال لربيكا:

«كما ترين. أنا رجل فلاح. دائماً أغلق الأبواب ورائي!»

ابتسمت ربيكا. وطفقت تتطلّع حولها باهتمام. فرأت آلاف الأفدنة من المراعي على جانبي الممر. وعند نهايته رأت البيت يقوم كالطود أمام عينيها. وقد تميّز ببرجيه الشامخين على جانبيه، والأعمدة قد شيدت على طراز كورنثي وتقع عند الدرجات المؤدية إلى مدخل البيت مما أعطى المبنى مظهراً إغريقياً. وقد وقفت أمامه سيارة مرسيدس. سألها بول:

«هل أعجبك المنزل؟»

«إنه يبدو كالهيكل الاغريقي!»

«أعتقد ذلك. عشت فيه طويلاً حتى أصبحت لا ألاحظ ذلك!»

أوقف بول سيارته أمام درجات السلم المؤدي إلى المدخل، وغادرت ربيكا السيارة. وجاء ليمسك بيدها ويقود خطواتها، فامتثلت لرغبته. وسارا إلى الداخل.

وعندما بدأ بول يخلع معطفه، ويساعد ربيكا على التخلّص من سترتها، ظهر خادم عند باب الصالة. وحياهما بأدب قائلاً:

«أسعد الأوقات يا سيدي».

«مرحباً جيليان. أين الآخرون؟»

«خالتك والممرضة ستيفنز في جناحها يا سيدي. أوه! لقد عاد أبوك من

أمستردام».

«هل وصل حقاً؟»

«ألم يكن من الأفضل لنا أن نأتي إلى هنا، عندما لا يكون أبوك في البيت؟»

«بحق السماء. لا. لم أكن أتوقع وصوله. هذا كل ما في الأمر. إنني في الواقع سعيد بعودته. فإنني أرغب في أن تقابليه».

«حسناً. هذا إذا كنت أنت متأكد من أنه لن يضيق بوجودي».

«يتضايق! أنت أول فتاة صديقة لي أحضرها إلى هنا!»

تناول جيليان معطفيهما، وسألهما:

«هل تناولتما طعام الغداء يا سيدي؟ أم تحب أن تعد السيدة جيليان لكما وجبة؟»

«لقد تناولنا طعامنا يا جيليان. على فكرة يا ربيكا. إنني أقدم لك جيليان مدير البيت. إن أجداده كانوا يعيشون هنا منذ القرن التاسع عشر. عندما كانوا يخدمون آل هارموندسي. أصحاب القصر الأصليين».

صافحت ربيكا مدير البيت، وأخبره بول بأنه سيصعد إلى الطابق الثاني بصحبة الآنسة ليندسي ليحظى برؤية خالته، ثم سأله:

«أين أبي الآن؟»

«في المكتب. لقد أحضر معه السيد بريانت، وعلى ما أعتقد أنهما يقومان بدراسة المشروع الاسترالي».

أفسح لهما جيليان الطريق حيث اخترقا الردهة وارتقيا درجاً حلزونياً يؤدي إلى رواق له سور حديدي.

وتوقف بول أمام باب، وطرق طرقة خفيفة ثم دخل الغرفة وتبعته ربيكا. كان الصمت مخيماً على الغرفة، فصاح بول قائلاً:

«خالتي! خالتي آديل. هل أنت موجودة؟»

تجمدت الابتسامة على شفتي ربيكا عندما سمعت صوت مقعد متحرك يدور، وشاهدت امرأة تتحرّك نحوها وقد بدا جسمها أكثر نحافة مما تتذكره إن ذاكرتها لا يمكن أن تخطئها؛ إنها آديل سانت كلاود! وفي لحظة شعرت ربيكا ببوادر غيبوبة. فالذكريات تجمعت فجأة في رأسها وأصابت عقلها بالشلل، ولكّنها تحاملت على نفسها، ورأت آديل تتطلّع إليها ملياً. وكان من الواضح أنها كانت تستمع بسرور بالغ وهي ترى وقع المفاجأة التي أفزعتها. ويبدو أن آديل كانت تعرف مسبقاً بقدوم الفتاة. فأخذت تقترب بمقعدها منها، وبادرتها قائلة:

«حسناً. حسناً يا بول. إذن هذه هي الفتاة التي حدثتنا عنها كثيراً!

٦ ـ لقاء الأنهار بالبحر

تجمّدت ربيكا في مكانها، وتطلّع بول نحوها باستغراب، وأجاب: «أجل».

ثم سأل ربيكا بنبرة رقيقة:

«هل أنت بخير يا حبيبتي؟ يبدو على وجهك الشحوب».

كان يريد أن يهدىء من روع ربيكا. فأمسك مرفقها بيده التي بعثت الدفء والطمأنينة إلى قلبها، ولأول مرة شعرت أنها في أمس الحاجة إليه. وأخيراً قالت:

«أنا مندهشة لمقابلة خالتك. هذا هو كل ما في الأمر! إن كلاً منا تعرف الأخرى من قبل يا آنسة سانت كلاود. أليس كذلك؟»

«هل تعرفينها حقاً يا خالتي آديل؟ هل تعرفين ربيكا؟»

قلبت آديل شفتها السفلى، ويبدو أنها أخذت بمبادرة ربيكا في الهجوم عليها، فأجابت أخيراً:

«أجل. هذا صحيح. كانت ربيكا ممرضتي في فيجي!»

دهش بول للمفاجأة، وقال:

«يا إلهي. يا لها من مفاجأة لطيفة».

تطلّعت آديل إلى ربيكا ملياً، وقالت:

«أجل أليس كذلك؟ إنك مشرقة يا ربيكا. وربما كنت نحيلة قليلاً!»

أخذت أديل تراقب ربيكا بعينين باردتين، في الوقت الذي كانت تتمنى فيه ربيكا الفرار. ولم يكن السبب أن آديل أفزعتها، وإنما لأنها كانت ببساطة لا ترغب في أن يكون لها شأن بأي فرع من فروع هذه العائلة.

قطع بول الصمت المخيم، وسأل:

«أين شيللا؟ إنها و ربيكا صديقتان منذ عدة سنوات».

«أحقاً ما تقول؟ شيء جميل! ستعود حالاً. أظن أنها تقوم الآن بجولة مع الكلاب».

ثم التفتت إلى ربيكا، وقالت لها:

«تعالي يا ربيكا واجلسي إلى جانبي وأخبريني ماذا كنت تفعلين طوال هذه السنوات؟»

ترددت ربيكا. فلم تكن تحدوها أدنى رغبة في الجلوس إلى جوار آديل أمام بول، ولكنه شجعها على أن تتقدم إلى الأمام. فامتثلت لرغبته وجلست على طرف مقعد إلى جوار آديل. وفي هذه اللحظة خيّل لربيكا أن الزمن قد تراجع ثلاث سنوات إلى الوراء. فانتابتها رجفة هزت كيانها. وأدركت آديل هذه الرجفة. فقالت لها:

«هل تشعرين بالبرد يا ربيكا؟ سأطلب من جيليان أن يشعل النار في المدفأة».

«هذا شيء لا يهم».

وتطلّعت إلى بول الذي كان يشعل سيكارة. وتطلّعت أديل بدورها نحو ابن اختها، وسألته:

«أين أبوك؟»

«لم أره بعد! أخبرني جيليان بأنه موجود في مكتبه. سمعت أنه أحضر معه بريانت».

«أجل. كانا في أمستردام سوياً».

وحولت رأسها وسلّطت عينيها على وجه ربيكا واستطردت تقول:
«يجب أن تخبر أباك بأن ربيكا هنا. أنا متأكدة أنه يرغب في مقابلتها ثانية. لقد أصبحا صديقين عندما زار فيجي. أنت تذكرين بيير سانت كلير، أليس كذلك يا ربيكا؟»

جحظت عينا ربيكا غير مصدقة، ورأت الحقد يبرز في عيني آديل وتساءلت. إن اسم والد بول هو فيكتور وليس سانت كلير. وشخصت بعينيها نحو بول، ولكن لسوء حظها كان يتطلّع إلى القادم الذي دخل لتوه إلى الغرفة، وكانت فتاة جذابة ذات شعر أحمر، وترتدي زياً أبيض بسيطاً. وعلى رأسها قبعة، فحياها بحرارة:
«أهلاً شيللا. انظري يا ربيكا من التي أتت».
ولكن ربيكا كانت تشعر بأن ساقيها لا تقويان على حملها، وإغماءة تغشاها، عندما فكرت في أن بيير سانت كلير هنا، في هذا المبنى. عليها أن تفر هاربة. قبل أن تبدو حمقاء في أعين الآخرين.
ولم تدرك شيللا التوتر الذي كان يعتري ربيكا في هذه اللحظة، فاجتازت الغرفة إلى حيث تجلس هي و آديل. وقالت مبتسمة:
«مرحباً ربيكا. كم هو مفرح أن نلتقي ثانية بعد كل هذه السنوات!»
تحاملت ربيكا للوقوف. وابتسمت ابتسامة واهنة في وجه شيللا ستيفنز:
«أوه شيللا! عندما أخبرني بول بأنك ممرضة خالته، لم أصدّق ذلك. كيف حالك؟»
قالت ببساطة:
«أنا بخير. إن الآنسة سانت كلاود ليست مريضة متعبة. كما تعرفين بنفسك».
تجهمت ربيكا وقالت:
«أوه. أجل. أنت تعرفين أنني كنت ممرضتها في فيجي».

«أجل ... أعرف».

ثم انحنت شيللا على مريضتها وراحت تسوي المساند التي تسند عليها ظهرها، وتسألها إن كانت تشعر بالراحة. ثم انتصبت بقامتها، وأردفت تقول:

«إنني أنا والآنسة سانت كلاود صديقتان. أليس كذلك؟»

ردت آديل:

«أجل... تماماً».

تشبثت ربيكا بحزام حقيبتها، وسألت:

«منذ متى وأنت تعملين هنا يا شيللا؟»

«منذ ثمانية عشر شهراً».

وأضاف بول قائلاً:

«عندما ماتت أمي، عادت خالتي آديل إلى انكلترا لتقضي فترة من الوقت كان ذلك قبل أن تلحق شيللا بالعمل هنا. أليس كذلك يا خالتي؟»

ابتلعت ربيكا ريقها بصعوبة، وبالطبع شاع الاضطراب في تفكيرها. إن أم بول ماتت، وإذا كان بيير هو أبوه. وعندئذ ترنحت ربيكا وحاولت أن تمسك بيدها ظهر المقعد حتى لا تفقد توازنها، ولاحظت شيللا محنتها. فسألتها:

«هل حدث شيء يا ربيكا؟»

وفي الحال بدا الاهتمام على بول الذي صاح بدوره قائلاً:

«هل حدث شيء يا ربيكا؟»

ووضع ذراعه حول كتفيها لمساندتها، واستطرد يقول:

«هيا بنا نخرج لنستنشق الهواء. جو هذه الغرفة أصبح فاسداً».

هزت ربيكا رأسها موافقة، ولكن آديل تدخلت قائلة:

«ألا تظن أنه من الأفضل يا بول أن تصحب شيللا صديقتها. أنا متأكدة أن لديها الشيء الكثير الذي يتجاذبان فيه الحديث، ولا تنس أن ربيكا قد

أتت لرؤية صديقتها».

تردّد بول قليلاً، وتمنّت ربيكا أن تجد عذراً تستطيع به الخروج مع بول بدلاً من البقاء مع صديقتها شيللا، ولكن تفكيرها لم يهدها إلى هذا العذر.

سألها بول:

«هل هذا ما ترغبين فيه يا حبيبتي؟»

«أنا ... أنا أعتقد ذلك».

ثم أرخى ذراعه من حول كتفيها، وتركها وهو يقول:

«أمرك يا خالة آديل. سأذهب لرؤية أبي، ثم نلتقي جميعاً لتناول الشاي سوياً».

ووقع نظر ربيكا على ملابس ثمينة عما اعتادت أن ترتديه شيللا منذ خمس سنوات خلت، وتساءلت عما إذا كانت شيللا قد تأثرت بجو الرفاهية المحيط بها.

جلست ربيكا وقد أحسّت بأنها استطاعت أن تخفّف من عبء جسمها على ساقيها، بينما راحت شيللا تعد القهوة، وتقول لها:

«أظنّ أن فنجاناً من القهوة سوف يبعث الانتعاش إلى نفسك. هل صدمت لرؤية آديل مرة ثانية؟»

مدّت ربيكا أصابعها وراحت تتحسّس مُسند المقعد، وكأنها تبحث عن شيء تقوله، ثم قالت أخيراً:

«أعتقد أنها كانت صدمة لي».

قالت شيللا:

«كانت فكرة آديل أن تحتفظ بشخصيتها سراً عليك. وعندما اكتشفت أنني أعرفك ازداد اهتمامها بالأمر!»

ضغطت ربيكا على شفتيها. وفكرت في أن آديل لا بدّ شعرت بالسعادة

عندما سنحت لها الفرصة لترى ضحيتها مرة أخرى. يا للمفاجأة! بول ابن بيير! برزت هذه الحقيقة أمام عينيها، فحطمت كل الآمال التي تمنت أن تتحقق في المستقبل.

سألتها شيللا:

«ألا تسألين. هل أحب التمريض الخصوصي».

هزت ربيكا رأسها بالايجاب، فقالت شيللا بحماسة:

«أحبه كثيراً. كل شخص هنا. حنون. وصديق!»

قالت ربيكا وهي تضغط على مخارج الكلمات:

«هل تعرفين والد بول؟»

«بيير؟ طبعاً!»

تضرّج وجه ربيكا بلون الدم. فإن شيللا قد نطقت اسمه عن عمد وكأنها واثقة بمعرفتها به، وكانت شيللا تقوم بدراسة كل ما يطرأ على وجه ربيكا. قالت ربيكا:

«ظننت أنك متزوجة الآن من بيترا»

«بيتر فيلدمان؟ هل تتصوّرين أنني يمكن أن أتزوج منه بعد إيماءتك التي أدارت رأسه إليك. أليس كذلك؟»

«ماذا تقصدين؟ كنت أظنك تحبين بيتر».

استدارت شيللا لتصب القهوة، وقالت:

«على الأقل كنت أظن أنني أحبه. لم يدر بخلدك أنك تسخرين من شخصي أليس كذلك؟ يا إلهي. إن بيتر ليس من النوع الذي يحب التورط في العلاقات السرية إذا أبديت له ذلك. كان وجهه دائماً يعبر عما يكابده».

سيطرت شيللا على ملامح وجهها، وناولتها فنجاناً من القهوة الساخنة، وسألتها بأدب:

«هل تحتاجين إلى سكر؟»

«صدقيني. إنني لا أعرف ماذا أقول. ظننت. كل واحدة منا ظنت».

«أعرف. أعرف. دعينا نترك هذا الموضوع نهائياً. وسأقبل تصرفك البطولي الذي أقدمت عليه».

ضغطت ربيكا على شفتيها، وقالت:

«إني آسفة»

«لا داعي للأسف. أنت قدمت لي خدمة. فقد عرفت بعد ذلك أنني لن أنعم بالسعادة مع رجل مثل بيتر فيلدمان. إنه رجل سهل القياد. وأنا أفضل رجلاً يكون سيداً لبيته».

مالت ربيكا ورشفت قدراً من القهوة، وحذت شيللا حذوها.

وعندما سمعتا طرقاً على الباب، استدارت كل منهما تلقائياً نحوه في وقت واحد، ولوهلة خشيت ربيكا أن يكون بيير هو الطارق، ولكنها وجدت بول الذي قال لها ببراءة:

«هل هو اجتماع مغلق. أم أنني أستطيع الانضمام إليكما؟»

بدا تعبير دافىء على وجه شيللا وهي تقول له:

«هل تحب أن تشرب قليلاً من القهوة يا بول؟»

«لا. إنما كنت أمزح. في الواقع إن الشاي معد في غرفة خالتي أديل. وطلبت مني أن أحيطكما علماً بذلك».

ثم تطلع إلى ربيكا بحنان، وسألها:

«هل تشعرين بتحسن الآن؟»

كانت ربيكا في الحقيقة تشعر بأنها على شفا الانهيار، ولكنها حاولت أن تخفف من هذا التوتر، فابتسمت قائلة:

«أشعر بتحسن كبير. شكراً لك».

«حسناً».

وعندئذ جذب بول يد ربيكا. فوقفت على قدميها، وعندما وصلا إلى الغرفة، قال بول:

«أخبرت أبي أننا وصلنا ولكنه لم يلاحظ لأنه مشغول مع توم في المشروع الاسترالي».

ابتسمت أديل وقالت:

«لا عليك يا عزيزي، فهناك وقت كثير يمكنك أن تلتقي به فيه. أظن أنكما ستمكثان لتناول طعام العشاء معنا».

بدأت ربيكا تقول:

«أوه ... لكن».

حينا قاطعها بول بحزم قائلاً:

«أجل. يمكننا البقاء. وفي الواقع إنني أتساءل عما إذا كان من الممكن أن نمضي إجازة نهاية الأسبوع هنا. ما رأيك يا ربيكا؟»

«لايمكن يا بول!»

تطلّعت إليها أديل بعينين فاحصتين، وسألتها:

«لماذا؟ بول أخبرني بأنكما قد حصلتما على إجازة نهاية الأسبوع».

تطلعت ربيكا إليه متوسلة أن يتدخّل، وقالت بتلعثم:

«إننا، أوه... بول».

ولكن بول كان لا يريد مؤازرتها، فترك الأمر معلقاً، وأحست شيللا بالتوتر، وأرادت أن تخفّف من حدة الموقف، فقالت:

«أظن أنك وجدت صعوبة في أن تتلاءمي مع الحياة في انكلترا من جديد بعد أن عشت في فيجي؟»

تنهدت ربيكا وقالت:

«أعتقد أنني تلاءمت مع جو انكلترا».

قالت آديل ساخرة:

«إنني لا أستطيع فهم سبب قرارك بالرحيل يا ربيكا. ظننت أنك أحببت الحياة في فيجي».

حاولت ربيكا أن تبدو غاضبة حتى تخفي اضطرابها، وهي تقول:

«لقد تعبت من العيش في مكان محدود»

والتقطت شيللا خيط الحديث، وقالت:

«لم تسنح لي الفرصة بزيارة جنوب المحيط الهادي. أظن أن الجو هناك رائع!»

قالت ربيكا:

«أجل رائع».

وأدار بول دفة الحديث إلى السؤال عن صحة خالته، ثم تطرّق إلى دراسته في مستشفى بارثولوميو، ثم نهض واقفاً وقال:

«ما رأيك يا ربيكا في أن نقوم بجولة في المنطقة المحيطة بالمنزل؟ لقد بدأ الظلام يزحف، وأريد أن أريك جانباً من المكان».

عضت ربيكا شفتيها، فقد كانت تود الرحيل. ولكن بدا واضحاً أن هذا المكان ليس من النوع الذي يبدي فيه المرء هذه الرغبة، وخاصة أن بول له حليف مثل خالته آديل، تؤازره في رغباته، ولذلك ابتسمت وقالت:

«أجل، أرغب في القيام بجولة».

وسارا في الممر حتى بلغا السلم الحلزوني، عندما خرج رجلان من الباب الذي يقع تحتهما، فتجمدت ربيكا في مكانها وتراجعت بظهرها إلى الحائط ولم يدرك بول تراجعها، وإنما أسرع يهبط الدرج، وهو يتوقع أن تتبعه. وعندما بلغ البهو، شدّ انتباهه وجود والده فقال له:

«هل فرغت من عملك؟»

كانت ربيكا قد لمحت بيير سانت كلير وهو يدور على عقبيه، ويبتسم لابنه، فقفز قلبها في صدرها. واهتز كيانها... كان بيير يرتدي ثوباً أسود، وقد خط الشيب رأسه وبدا لها جذاباً كسابق عهده، وإن كان أكثر نحافة. وتذكّرت الماضي عندما اختليا في غرفتها في فيجي. وشعرت بصلابة صدره تضغط على صدرها.

يا إلَهي لا تدعه يتطلع إلى أعلى ويراني. يا لحماقتها، ففي لحظة سوف يتلفت بول حوله ليقدمها إلى أبيه، وعندئذ. كتمت زفرة ندت من صدرها. فمن الواضح أن بول لم يوضح شخصية رفيقته عندما أخبره بنبأ وصولها، ولكن ماذا يهم ستلتقي به وجهاً لوجه آجلاً أو عاجلاً.

رأت من الأفضل لها أن تتمسك بالهدوء، وألا تقبع في هذا المكان، وتبدأ في الهبوط وعندما شرعت تضع قدميها على درجات السلم رأت بول يلتفت حوله بحثاً عنها، وقال مبتسماً:

«تعالي يا ربيكا. أريد أن تقابلي أبي مرة ثانية».

وسواء ذكر بول لأبيه أنه أحضر الفتاة التي يعرفهـا أم لم يذكر، لأن ربيكا تجهل حقيقة الأمر، إلاّ أنها أحست وهي واقفة في البهو أن عيني بيير مسلطتان عليها. ولم تتطلّع إليه حتى أصبحت على مقربة منه، فرأت البرود يشوب عينيه، والصرامة تعلو فمه. وأخذ يهز رأسه غير مصدق ما يرى!

ولكن بول جذبها إلى الأمام، ووضع ذراعه على كتفيها، وقال:

«حسناً يا أبي. أنت تذكر ربيكا ليندسي. أليس كذلك؟»

وجدت ربيكا نفسها مضطرة إلى أن تتطلّع إلى بيير، وأحسّت بصدمة عندما رأت القسوة واضحة على ملامح وجهه. وأخيراً قال:

«أجل. أتذكر ممرضة آديل!»

مدت يدها لمصافحته، ولكنها سحبتها بسرعة. كانت لمسته تشيع في أعماقها

حلاوة تشوبها المرارة. وانتابها التوتر عندما حاولت الكلام عن أول شيء تبادر إلى ذهنها. قالت:

«لكن اسم فيكتور قرين لاسم بول. وليس سانت كلير».

تكلّم بيير قائلاً ببرود:

«اسم ابني بول فيكتور سانت كلير. وعندما التحق بهيئة المستشفى، وجدوا اسمه طويلاً، فاضطروا لاختصاره».

ارتجفت ربيكا من نظرات بيير، وقالت:

«أوه! نعم... بدأت أفهم».

ولم يلاحظ بول رجفة ربيكا إذ تحوّل يتحدث إلى الرجل الآخر قائلاً:

«ربيكا. دعيني أقدم لك توم بريانت. ساعد أبي الأيمن. توم دعني أقدم لك ربيكا ليندسي. إنها تعمل أيضاً في المستشفى، وكانت سابقاً ممرضة آديل، وقد التقت بأبي عندما كان يقوم بزيارة فيجي».

صافحها توم بريانت بحرارة، وقبض براحته على أصابعها النحيلة، وعلّق على ذلك ضاحكاً، وتجاوبت مع روحه المرحة بشغف. ولجأت إلى ذلك حتى تتجنّب تحليلات بيير النافذة، ووقفا طويلاً يناقشان عملها في سانت بارثولوميو وأخيراً قال بيير:

«اقترح الدخول إلى المكتبة. وتناول بعض الشراب!»

قال بول:

«كنت أنوي مصاحبة ربيكا لترى المنطقة المحيطة بالقصر».

أبدى بيير ملاحظته، قائلاً:

«ولكن الظلام يسود المكان. أقترح تأجيل ذلك حتى الصباح».

تطلّع بول إلى ربيكا، وقال:

«إننا نستطيع أن نفعل ذلك في الصباح».

أطبقت قبضة يدها، وقالت:

«لقد نسيت يا بول، إننا لن نكون هنا في الصباح».

تطلّع إليها بيير طويلاً وقال:

«بالتأكيد. دعاك ابني لقضاء إجازة نهاية الأسبوع، بالاضافة إلى أن الضباب أخذ يسود الجو وأصبح من الجنون قيادة السيارة ليلاً في طريق العودة إلى لندن».

تجمّدت شفتا ربيكا، وتطلّعت إلى بول الذي قال لها ببراءة ملحوظة:

«لا تلوميني، فلست مسؤولاً عن سوء الأحوال الجوية».

«ولكنني غير مستعدة. ألا تستطيع حقاً العودة إلى المدينة؟»

«ولماذا نعود؟ يوجد هنا العديد من الغرف».

قال بيير فجأة بنبرة متبرمة:

«أظن أن المناقشة قد انتهت بصدد هذا الموضوع. لا يمكنك الرحيل الليلة وعليك بقبول دعوة المبيت هنا. والآن هيا بنا نتناول الشراب».

ضغطت ربيكا على شفتيها. وساءها أن تجد بول يتخذ هذا الأسلوب ليحقق رغبته بدون أن يفطن إلى أن بيير يرى أن ربيكا تسلك مسلك الأطفال. ولم يكن في وسعها أن تفعل شيئاً، فسمحت لبول بأن يأخذ بيدها، ويقودها إلى المكتبة وهي تتلوّى من غضبها المكبوت.

فتح بيير سانت كلير الباب. وكان عليها أن تمر به أثناء دخولها الغرفة. وشعرت أثناء مرورها بأن ساقيها لا تقويان على حملها.

أجلسها بول بجوار المدفأة. وقدّم لها كأساً من الشراب، بينما أعدّ قدحين أخرين له و لتوم بريانت. أما بيير فأعد لنفسه كوباً كبيراً من الشراب. وقد بدا واضحاً أن تماسكه قد اهتز هذا الأصيل.

كانت ربيكا سعيدة بكأسها لأنها أتاحت لها أن تركّز اهتمامها فيها. وأخيراً

قالت:

«لم أكن أتخيل المكتبة على هذه الصورة».

ابتسم توم وقال:

«إنني من رأيك. فإن مثل هذه المكتبة أصبح نادراً».

تقدّم بيير ليقف إلى جوار المدفأة. وقد أعطى ظهره لها. ثم قال بخشونة:

«قررت أن أبيع المنزل!»

تطلّع توم إليه في دهشة، قائلاً:

«أحقاً اتخذت قرارك؟ حسناً. إنك تكلمت عن ذلك كثيراً».

هز بيير كتفيه قائلاً:

«إنه مبنى كبير قليل النفع باحظ التكاليف. بالاضافة إلى أنني لم أهتم يوماً بالمكان».

تطلّع بول إلى ربيكا ثم قال:

«ولكن أمي اختارت سان سوسي، وفي حياتها كانت تقيم الحفلات هنا. كانت تحب كل أسباب الترفيه. أليس كذلك يا أبي؟»

ألقت ربيكا نظرة سريعة على بيير، وتساءلت كيف يكون ردّ فعل كلام بول عليه، ولكن يبدو أن بيير كانت له وجهة نظر تختلف عن ابنه، ووجدت نفسها تفكر في جنيفر سانت كلير.

والتقط توم خيط الحديث مرة ثانية. وراح يتحدث إلى بول. وكانت ربيكا تشعر أن بيير يرمقها بين الحين والآخر. وتساءلت عما يدور بتفكيره الآن، وأي عالم بناه لوجودها هنا. فشعرت فجأة برجفة. وهي تفكر في أمره. ما دامت جنيفر قد ماتت، فهل ينوي الزواج ثانية؟ ومهما تكن صورتها في نظره، فإنه يبدو واضحاً أن ما شعر به نحوها في فيجي أصبح أمراً منسياً، وكل ما تجنيه الآن. أن تتجرّع كأس آلامها!

وقطع حبل تفكيرها صوت طرقات على الباب، وعندما قال بيير ادخل، دخل إلى الغرفة جيليان، ووجه حديثه إلى سيده بينما كان يحدق في بول، وقال:
«الغرفة الخضراء معدّة يا سيدي. هل السيدة الشابة ستمكث الليلة هنا؟»
تطلّعت ربيكا إلى بول غاضبة، بينما كان بيير يجيب قائلاً:
«أجل يا جيليان. إن الآنسة لين ي ستمضي الليلة هنا. وربما كان من الأفضل أن تريها غرفتها الآن».
نهضت ربيكا على الفور، وكانت لا ترغب في البقاء، وإنما تريد أن تبتعد عن الغرفة، إن لم يكن عن البيت كله. ولكن هذ الأمر كان مستحيلاً بالاضافة إلى أنها ستبدأ الفرار من جديد!
أخيراً قالت:
«شكراً يا جيليان. أحب أن أتوجه إلى غرفتي».
بدا القلق على بول وقال:
«ربيكا!»
ولكن ربيكا تطلّعت إليه بازدراء، وقالت بإيجاز:
«سأراك فيما بعد يا بول. اسمحوا لي!»
غادرت الغرفة، وتبعها جيليان. ثم طلب منها أن تتبعه، وبذلت جهداً في أن ترسم ابتسامة على شفتيها تحيّة للخادم المسن. إنه لم يكن خطأه، وما ذنبه لكي تعامله بخشونة؟ اخترقا البهو، ومرا خلال باب مصنوع من خشب البلوط، أدى بهما إلى ممر خلفي، فأدركت ربيكا على الفور أنها في أحد البرجين. ثم بدأ جيليان يرتقي السلم الحلزوني وتبعته ربيكا وهي تتوقف بين آن وآخر لتلقي ببصرها عبر النوافذ الضيقة المتناثرة. حتى بلغا منبسط الدرج. ووقف جيليان أمام إحدى الغرف ودفع الباب، وطلب منه أن تتقدّمه في الدخول.
وعندما جالت ببصرها، بدا السرور عليها. فقد كانت غرفة جذابة، ومضاءة

بمصابيح أعلى الحائط والسجاجيد المنتشرة في أرجاء الغرفة من اللون الأخضر، والستائر من القماش المطرز.

راقب جيليان الانطباعات التي ارتسمت على وجهها، وقال:

«حمامك ملحق بهذه الغرفة، ولحسن الحظ أن الغرف مستقلة الواحدة عن الأخرى. ولذلك يمكنك أن تعتبري هذا الجزء جناحاً خاصاً بك».

«الغرفة رائعة، شكراً».

هز جيليان رأسه قائلاً:

«إنني سعيد بأنها حازت إعجابك يا آنسة. هل تريدين شيئاً آخر؟»

«لا أظن. ما موعد العشاء؟»

«عادة. في السابعة والنصف. السيد سانت كلير يتناول كأساً في المكتبة قبل أن يتناول طعامه. يمكنك أن تنضمي إلى الأسرة هناك في السابعة والربع».

«هل أسلك الطريق الذي أتيت منه؟»

«لا ليس ضرورياً. انظري».

قادها عائداً إلى منبسط الدرج وأشار إلى بابين. وقال:

«هذا باب حمامك، والباب الآخر يقودك إلى البهو العام، وهذا هو الطريق المعتاد سلوكه إلى المبنى الرئيسي».

«أوه، فهمت. شكراً لك».

هز جيليان رأسه، وقال مبتسماً:

«هناك ماء ساخن إذا رغبت في الاستحمام. والآن أتركك!»

ابتسمت ربيكا بدورها شاكرة. وعندما غادرها أغلقت الباب، وألقت بنفسها على الفراش، ودفنت وجهها بين راحتي يديها. وبعد قليل نهضت وتوجهت إلى الحمام. واغتسلت بالماء الدافىء. واستعادت نشاطها. ولم تحاول أن تفكّر فيما قد يحدث في المساء. إنه موقف يتعينّ عليها مواجهته واجتيازه، ولا أهمية لما قد ينجم

من مأساة.

ومع كل هذا لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في بيير سانت كلير كان عذاباً تكابده، وذهولاً تعاني منه كلّما فكرت فيه، وكلّما حاولت أن تكفّ عن التفكير فيه، كانت تشعر أنه يعيش في عقلها الباطن. كان الألم يعتصر أحشاءها بول قال إن أمه قد ماتت، ومعنى ذلك أن بيير أرمل. وتذكرت قسوة وجهه وهو يتطلّع إليها عندما التقت به بعد الظهر. وأدركت أن هذه الحقيقة لا تعني أي شيء لديه كما تعنيها هي. بل على العكس، لقد عاملها وكأن وجودها في هذا البيت يعد مأساة!

وتساءلت عما يكون رأيه في العلاقة التي تربط بينها وبين ابنه، كما تساءلت عن دور آديل، وهل خططت لكي تكشف لبول عن علاقتها بأبيه؟ وفزعت عندما تخيّلت الروح المدمرة التي تعربد في أعماق آديل.

عادت إلى غرفتها، وفجأة سمعت طرقاً على الباب، فقالت:

«من. من بالباب؟»

«أنا بول!»

«ماذا تريد؟»

«افتحي الباب. أريد أن أراك».

«لا. لم أفرغ بعد من ارتداء ملابسي. سأراك على مائدة العشاء».

«لكنني أريد أن أشرح لك».

«ليس هناك شيء يحتاج إلى شرح. ارحل يا بول».

«أوه، أرجوك يا ربيكا. أريد أن أراك!»

ترددت ربيكا، ثم وقفت، وارتدت سروالاً ثبتت أزراره، ووضعت شالاً على كتفيها. ثم توجهت إلى الباب، وفتحته، فرأت بول أمامها جذاباً في زي العشاء الأسود. قالت له:

«أنت تعرف أنه ليس لدي ثوب للعشاء. صدقني. هل خططت لكل هذا؟»

«لا. لم أخطط شيئاً. كيف أخطط لمجيء الضباب؟»

تنهدت ربيكا وقالت:

«في أي حال. كنا نستطيع أن نمكث في القرية».

قال بول بجفاء:

«كنت تثيرين الأقاويل علينا».

«لا يهمني كثيراً».

«لماذا تكرهين البقاء هنا؟ هل هي خالتي؟ أعرف أنها مثيرة للأعصاب في بعض الأحيان».

«لا. لا. ليس الأمر كذلك. ولكن هل كان أبوك يعرف بقدومي؟»

«كيف يعرف؟ كان في أمستردام».

«أوه... صحيح!»

«ما الخطأ يا ربيكا؟ يبدو عليك التوتر والحدّة منذ لحظة قدومك إلى هنا. هل هناك خطأ ارتكبته؟»

«بالطبع لا. الساعة الآن السابعة والربع. حان وقت العشاء».

اقترب منها بول، وقال:

«أنت جميلة. هل تعرفين ذلك؟»

سارت ربيكا نحو الباب، وقالت:

«بول، ليس الآن».

«ما عيبي؟ أنت تتجمدين كلّما دنوت منك».

«ظننت أن كل واحد منا يفهم الآخر».

«حقاً! ما تقولين؟ حسناً يا ربيكا، إنني آسف. لقد أفسدت عليك إجازة نهاية الأسبوع، أليس كذلك؟»

لانت ربيكا بعض الشيء، وقالت:

«لا. لا. لست أنت الذي أفسدها. إنما أنا».

ومدت يده لتتعلق بذراعه. واستطردت تقول:

«هيا بنا ننضم للآخرين».

٧ ـ عودة غير منتظرة

كانت المكتبة غاصّة بالجميع، وفجأة تحولت أبصارهم لرؤية القادمين. بول و ربيكا. آديل، وشيللا، وتوم بريانت، وبيير. وكان وجه توم هو الوحيد المبتسم، فأحست ربيكا بسعادة لوجوده.

كانت آديل تجلس على مقعدها المتحرك، وتبدو مستمتعة بسرور دفين بجيش في أعماقها، فأحست ربيكا بثورة نحوها. ولكن برغم كل شيء، كانت عينا ربيكا مشدودتين إلى الرجل الآخر!

كان بيير سانت كلير وسيماً في ثوب العشاء الأنيق الغالي. وينم كل جزء في كيانه عن رجل ناضج. ودهشت ربيكا لأنها ما زالت أسيرة نزقها في أن تعامله بالأسلوب الذي انتهجته سابقاً. كانت تبدو كالغريبة، برغم أنه في يوم ما احتواها بين ذراعيه وبثها عواطفه الملتهبة!

وبدأت آديل الحديث قائلة:

«آه. أخيراً أقبلت يا بول. ظننا أنك لن تأتي».

وكانت كلماتها تلمّح إلى ربيكا التي تضرج وجهها بلون الدم. ولم ينقذها من هذا الموقف إلاّ بيير الذي سأل:

«هل ترغبان في الشراب؟»

فتطلّع بول إلى ربيكا رافعاً حاجبيه متسائلاً. فطلبت كأساً. ولكن بيير لم يلتفت إليها، وإنما أعد الشراب لهما. وأسرع بول ليحمل الكأسين

من أبيه. وكانت شيللا تحتسي كأسها، وهي تتطلّع بدهشة إلى ربيكا التي راحت تتساءل عما يدور في خاطر شيللا.

أشعل بيير سيكاراً، عندما قال توم بريانت:

«الضباب يزداد كثافة. هل كان أحدكم في الخارج؟»

قال بول باهتمام:

«لا. هل الضباب كثيف حقاً؟ أظن أنك ستضطر إلى البقاء هنا يا توم».

قال بيير وهو يأخذ نفساً عميقاً:

«سيبقى توم. كيف تسير الأمور في المستشفى يا بول؟ هل أفضيت بالخبر إلى هاريسون؟»

«أجل وقد اهتم به، وتساءل عما إذا كان المشروع عملياً أم لا؟»

اقترب توم بريانت من ربيكا، وقدم لها سيكارة، ثم قال مبتسماً:

«يبدو عليك القلق. هل من المحتم عليك أن تعودي الليلة إلى المدينة؟»

قالت ربيكا وهي تضغط على شفتيها:

«ماذا تقول؟ أوه. لا. ليس تماماً. المسألة ببساطة أنني لم أكن مستعدة».

ثم نظر إلى أصابعها وسألها:

«أنت لست متزوجة؟ إنه أمر يدهشني».

عضت ربيكا على شفتيها، وقالت:

«الزواج ليس كل شيء».

أومأ توم برأسه موافقاً، وقال:

«أجل. فأنا نفسي لست متزوجاً، وعملي يشغلني تماماً. وليس من السهل أن أجد امرأة ترضى بحياة الترحال التي أعيشها».

«لن تشعر المرأة بضيق إذا كانت تحبك».

«أنت تتكلمين بإحساس، هل هذا نابع من تجربتك الشخصية؟»

«أعتقد ذلك».

شعرت ربيكا بسعادة عندما وجدت الشراب قد بعث الدفء في أوصالها. وراحت تدور بأصابعها على حافة الكأس، ثم قالت:

«أنت تعرف والد. بول منذ فترة طويلة، أليس كذلك؟»

«أجل، وأنت التقيت به منذ فترة أيضاً، عندما زار آديل في فيجي. أصحيح هذا؟»

«أجل، هذا صحيح».

وجالت ببصرها في أرجاء الغرفة. حيث وجدت أن أحداً لا يتابع حديثها. كان بول يتبادل الحديث مع خالته، بينا كان بيير يقدم كأساً أخرى إلى شيللا، التي راحت تتطلع إليه بعينين ناعستين استأثرتا ببصره لفترة طويلة. وأحسّت ربيكا بقلبها يدق عالياً، فأشاحت بوجهها بعيداً، وفكرت في أن بيير لم يتورط في علاقته مع شيللا، ومع هذا لم لا يرتبط بها؟ وعلام تدهش؟ إنها كانت مجرد ممرضة آديل عندما جذبت انتباهه. وأغمضت عينيها فترة وجيزة. وعندما فتحتهما، رأت توم يتطلع إليها باهتمام واضح ويسألها:

«هل أنت بخير؟ لقد بدا الشحوب على وجهك فجأة. هل تشعرين بضيق؟»

«شعرت بإغماءة خفيفة!»

«هل أنت متأكدة أنك بخير؟ راودني الظن بأنك عانيت من توتر الأعصاب في الفترة الأخيرة. لعلك بذلت جهداً كبيراً في عملك. إنني أتصور أن عملك يتطلب فتاة صغيرة».

«إنني أجد التمريض مهنة مجزية. أحياناً تكون ساعات العمل طويلة ومرهقة، ولكنني لا أشعر بضيق».

«ولكن ما حكاية الحفلات التي تشترك فيها الممرضات؟ فهمت أن هناك العديد من الأنشطة الاجتماعية داخل المستشفى».

«أخشى أن أقول إن هذه الحفلات لا تجذبني. إنني عزوفة وأميل إلى الوحدة وأحب الاستماع للموسيقى والقراءة».

وفي هذه اللحظة اقتربت شيللا من ربيكا، وقالت لها بصوت صاخب:

«أوه مهلاً، يا ربيكا، لقد اعتدت على التسلية بالحب، وقد أقمنا عشرات الحفلات في الشقة التي عشنا فيها سوياً».

«كان ذلك فيما مضى يا شيللا».

«أعرف ذلك، ولكن الانسان لا يتغيرّ تماماً، وفي فيجي فهمت أنك اعتدت على الخروج قليلاً».

شخصت ربيكا ببصرها نحوها لبرهة قصيرة، ثم حولت نظراتها إلى آديل التي دفعت بمقعدها المتحرك لتنضم إليهما. قالت ربيكا:

«أظن أنك أخطأت يا شيللا. إنني لم أخرج مطلقاً عندما كنت أقوم على تمريض الآنسة سانت كلاود».

ضيقت آديل ما بين عينيها، ثم قالت:

«حسناً. ربما. ليس كثيراً. أليس كذلك يا ربيكا؟»

ثم تطلّعت إلى توم، وأردفت قائلة:

«هذا يتوقف على من يكون الداعي طبعاً!»

وأحست ربيكا بالموت يدهمها. هل تنوي آديل أن تشير إلى اسم بيير في معرض حديثها! وكان بيير نفسه يصبّ كأساً أخرى، وقد بدا وكأنه في عالم مختلف عن باقي المجموعة، في حين انضم بول إليهم، ووضع ذراعه فوق كتفي ربيكا مما سبب لها ضيقاً كبيراً، وسأل ببساطة:

«ما الموضوع؟»

وخيم صمت غريب استغرق وقتاً قصيراً، وفجأة دوت طرقه على الباب أزعجتهم، وكان القادم جيليان، أتى ليخبرهم بأن العشاء قد أعد. فأطلقت

ربيكا زفيراً عبرت به عن ارتياحها.

تولىّ بيير أمر مقعد آديل، فدفعه أمامه وغادر المكتبة. ولما كان توم مستأثراً بالحديث إلى ربيكا، فقد وجد بول نفسه مضطراً إلى السير مع شيللا. وكان العشاء معداً على مائدة كبيرة يمكن أن تستوعب ثلاثين ضيفاً على الأقل، وقد اضطرت المجموعة لأن تحتل جزءاً منها حتى يسهل خدمتهم.

كان من الطبيعي أن يجلس بيير على رأس المائدة، وإلى اليسار آديل، وتوم إلى يمينه، وجلست ربيكا إلى جوار توم بينما احتل بول مقعداً في مواجهتها بين خالته وممرضتها. وأدركت ربيكا أنّ المكان لم يعجبه، فشعرت بشيء من الارتياح.

كان الطعام شهياً، وبرغم الاضطراب العصبي الذي انتاب ربيكا، إلاّ أنها راحت تتحدّث إلى توم، وتلتهم الطعام بلا وعي. وعقب الانتهاء من تناول الطعام، انتقلوا إلى غرفة الجلوس لاحتساء القهوة، وشدّ انتباه ربيكا خزانة تحتوي على بعض النفائس، فسارت نحوها وراحت تتأمل بإعجاب بمجموعة من قطع الشطرنج النادرة، عندما أحست بأنّ شخصاً ما يقف إلى جوارها، وكانت تتوقع أن يكون بول أو توم، ولكن حين تطلعت إليه، وجدت أنه بيير. وعلى الفور انتابها التوتر الذي أشاع الاضطراب في أوصالها. سألها بصوت بارد:

«حسناً، ما رأيك في منزلي؟»

«إنه، جميل للغاية».

«هل هذا هو رأيك؟ كنت أتوقع أن يكون انطباعك مختلفاً. أخبريني، هل كنت على علم بوجودي في المنزل في إجازة نهاية الأسبوع؟»

«ماذا تقصد؟»

«ما قلته لك، هل كنت تتوقعين رؤيتي، أو كنت تأملين في التأقلم بجو البيت قبل عودتي؟»

ارتعش جفنا ربيكا، وقالت بصوت غاضب:

«إنني لم أكن أعلم أنه منزلك حتى قابلت آديل».

«هل تتوقعين أن أصدق كلامك؟ هل من المعقول أن أبني بول لم يشر إلى أسرته ي حديثه معك؟»

«إنه أشار بالفعل. ولكن ليس بالاسم»..

«هل تتوقعين مني أن أصدق أنك لا تعرفين من يكون بول!»

«إنني لا أكترث كثيراً بما تعتقد!»

«بالطبع أنت لا تعرفين شيئاً عن هاليداي!»

زوت ربيكا ما بين حاجبيها في حيرة، وسألته:

«هاليداي؟ من يكون هاليداي؟»

« دعينا من هذا الآن».

ثم راح يجول ببصره بين الحاضرين. وعندما تأكد أن أحداً منهم لا يتابع حديثهما، استطرد قائلاً:

«هل تظنين أنك وحدك صاحبة الحق في معاملتي بقسوة؟»

التهبت وجنتا ربيكا لهذه المواجهة، وقالت:

«أرجوك. لا أعرف سبب كلامك معي بهذه الطريقة. جئت إلى هنا لمقابلة شيللا. هذا هو كل ما في الأمر. هل كنت تظن أنني سوف آتي وأنا أعلم بوجود آديل هنا؟»

وراح بيير يتفحصها فترة طويلة، ثم قال بمرارة:

«إنني أجهل لعبتك، ولكنني أرفض أن أصدق أن دوافعك بريئة كما تدعين».

ابتلعت ربيكا ريقها بصعوبة، وتساءلت... ترى ما الذي قالته آديل بعد رحيلها عنها. وقطعت آديل حبل تفكيرها، قائلة:

«بيير، بيير... ما الحديث الذي استأثر بكما؟ إن بول قد نفد صبره تماماً. أليس

كذلك يا عزيزي؟»

سارت ربيكا في تكاسل عبر الغرفة وجلست قرب بول بينما قال بيير:

«كنا نتحدث عن قطع الشطرنج، وأخبرت ربيكا أنني ابتعتها مع المنزل».

ربت بول على ظهر يد ربيكا التي كانت مستقرة على ركبتيها بينما انشغل الآخرون بمناقشة موضوع بيع سان سوسي، وانتهز بول الفرصة، فسألها:

«اخبريني يا ربيكا، إلى أي مدى كانت معرفتك بأبي في فيجي؟»

حدقت ربيكا فيه غير مصدقة، وهزت كتفيها قائلة:

«معقولة للغاية!»

ثم صمتت قليلاً. وأردفت تسأله:

« متى سنعود إلى المدينة غداً؟»

«خالتي آديل أخبرتني أن أبي كان يعرف أنك تعملين بمستشفى بارثولوميو. هل رأيته منذ أن رحلت عن منزل خالتي آديل؟»

ضمت ربيكا راحتيها بقوة، وقالت بصدق:

«بالطبع لا»

وصمتت، وراحت تتساءل، ما الذي تنوي آديل أن تفعله الآن؟

قال بول:

«أعتقد أنه اكتشف الأمر عندما اتصل بالمسؤولين في المستشفى عند بدء تدريبي بها. ودهشت عندما تبينت أنه لم يحاول رؤيتك. على العموم خالتي آديل كانت تقول إنك أنت وأبي كنتما أصدقاء».

«لن أعبأ بما تقوله خالتك عني. فربما تكون قد شعرت بضيق عندما استقلت من خدمتها».

«لماذا فعلت ذلك؟»

«خالتك ليست بالشخصية السهلة التي يمكن أن يتعامل معها الانسان!»

ابتسم بول، وزال عنه القلق الذي ارتسم على وجهه، وقال:

«تساءلت كثيراً عن السبب. وكان من المستحسن أن تخبريني بسابق معرفتها بك حتى يكون في استطاعتي تحذيرك».

قالت في ارتياب:

«آه... أجل».

وحتى لو عرفت ربيكا، هل كانت ستأتي؟ إنه احتمال مشكوك فيه. ومع كل هذا كيف يتسنى لها أن تعرف أن والد بول هو بيير سانت كلير؟

وجاءت شيلا لتجلس بجوارها، وهي تتطلع إلى ربيكا عن عمد. وسألتها:

«هل لديك قميص نوم أو بيجاما؟ إنني أستطيع أن أعيرك إحداها».

انتاب ربيكا إحساس دفين بأن شيلا تعرف تماماً ما حدث بينها وبين بيير في فيجي، فابتسمت قائلة:

«يمكنني أن أتدبر الأمر، وشكراً على العرض الذي تقدمت به؟»

«لا داعي للشكر. متى تنوي العودة إلى المدينة يا بول؟»

«أظن... سنرحل في الصباح... وأشك أن ربيكا سترضى بالبقاء فترة أطول».

قالت ربيكا:

«يجب أن نرحل بأية حال. إن نوبتنا تبدأ صباح الاثنين».

قالت شيلا:

«العمل بالمستشفى... كم هو كريه! لا أعرف كيف تتحمّلين العودة إليه يا ربيكا. إنني لا أحب مثل هذا العمل».

قال بيير بصوت ساخر:

«لأنك تحبين الأشياء المادية في الحياة!»

وجذب صوته نظر ربيكا فتطلعت إلى وجهه، ولم تعترض شيللا على كلماته، وإنما انفجرت ضاحكة ضحكة رقيقة وقالت:

«فعلاً، ولم لا؟ أنت تدفع لي راتباً، وجعلتني أنغمس في حياة الترف».

ضغطت ربيكا على شفتيها عندما ابتسم بيير لوقاحة شيللا. وقال ساخراً:

«أستطيع أن أحرمك منه».

عندئذ نهضت شيللا، وراحت تتطلّع إلى وجهه عن قرب شديد، وقالت له بدلال:

«ولكنك لن تستطيع. هل في وسعك أن تفعل ؟»

منحها بيير ابتسامة متراخية، وقال:

«لا، لن أستطيع. هل ترغبين في الاشتراك في مباراة بريدج؟ إن مريضتك تصرّ على الانضمام إليها».

تطلّع بيير إلى ابنه و ربيكا ثم سأل:

«وماذا عنك يا بول؟»

«لا... شكراً».

تجهّم بيير وقال متلعثماً:

«وأنت... يا ربيكا؟»

قالت وهي تشيح بوجهها عنه:

«إنني لا ألعب!»

«هيا بنا نذهب إلى المكتبة. أبي لديه جهاز تسجيل، يمكننا أن نستمع إلى بعض الأغاني».

وافقت ربيكا على اقتراحه، ونهضت لتغادر معه الغرفة.

كان الجو في المكتبة يدعو إلى السرور، عندما راحت ربيكا تستمتع بالنظر

إلى أكوام الاسطوانات، وهي جالسة على الأرض، وإلى جوارها بول. ولكنها نهضت واقفة عندما حاول أن يدغدغ عنقها بأصابعه، وسارت إلى النافذة ومسحت الرذاذ الذي يكسو الزجاج. ورأت الضباب يملأ الفضاء في الخارج. حتى استحالت رؤية شجرة كانت قريبة من المنزل كما أحست أن الضباب قد وقف حائلاً بينهما وبين الزمان والمكان. وأصبحا يسبحان في فضاء. بلا هدف أو غاية يسعيان إليها.

تنهدت ربيكا. ثم أغلقت الستائر في اللحظة التي رنّ فيها جرس التليفون، توجّه بول للرد. واستمع للمتحدث الذي أفضى إليه برسالة. بعدها تبدلت سحنته وتجهّم تجهماً شديداً. وأخيراً قال:

«حسناً. حسناً. سأخبره».

ووضع السماعة مكانها. وعندئذ رفعت ربيكا حاجبيها متسائلة. فهز رأسه عابساً، وقال:

«إنه هارمان. ناظر زراعة والدي. يخبرنا بوجود حادث تصادم بين سيارة ولوري عند مطلع الطريق بالقرب من الحدود الشمالية».

تقدمت ربيكا نحوه، وقالت:

«أمر مريع! هل أصيب أحد؟ هل أستطيع أن أقدم أية مساعدة؟»

«يجب أن أخبر والدي. يعتقد هارمان أن أحد الرجال قد مات وأظن أن ثلاثة أشخاص قد أصيبوا في الحادث».

«سآتي معك».

«لا مانع».

وفتح باب المكتبة، فوجد الجماعة منهمكين في اللعب، قال بول:

«هناك حادث تصادم عند مطلع الطريق. هل سمعت رنين التليفون؟ إنه هارمان الذي أفضى بالنبأ. ويقول إنهم ارتطموا بالسور. ودارت السيارتان عدّة

دورات فوق الأرض. وأن أحد الرجال قد مات!»

ولم يحتمل بيير المزيد. فانتفض واقفاً على قدميه. وألقى بأوراق اللعب. وصاح:

«هيا بنا».

قالت ربيكا:

«سآتي معكم. إنني ممرضة، وفي وسعي أن أقدم المساعدة».

ونهضت شيللا بدورها، وقالت:

«وأنا أيضاً ممرضة».

تطلّع بيير إلى شيللا فترة طويلة وقال:

«من المؤسف أن تفسدي ثوبك. فضلاً عن أن آديل قد تحتاج إليك».

ثم حوّل بصره إلى ربيكا، وقال لها بدفء:

«هل تحتاجين إلى معطف؟ بول أذهب إلى المطبخ واطلب بعض المصابيح من جيليان. هل أخبرك هارمان بأنه استدعى الاسعاف أو رجال الشرطة؟»

«أجل. بالطبع. استدعاهم قبل أن يتحدث إلينا».

«حسناً. هيا بنا. ونزلوا درجات السلم المؤدي إلى الساحة الأمامية حيث كانت تقف السيارة المرسيدس، وفتح بيير الباب، وأمر ربيكا بالدخول والجلوس في المقعد المجاور لمقعده، فامتثلت لأمره وتساءلت عما إذا كان بول سيحتج لجلوسه في المقعد الخلفي أم لا!

وأقبل بول ينزل الدرجات بسرعة لينضم إليهما وفتح الباب الخلفي ليجلس وراءهما.

ودبت الحياة في المحرك، ودوّى عالياً. واتخذت السيارة طريقاً جانبياً. عبر الأرض الفضاء. وقال بول:

«هذا الطريق كان ممراً خاصاً بجياد الركوب، حتى قام هارمان بتوسيعه

بواسطة سيارته اللاندروفر».

ركّز بيير تفكيره على قيادة السيارة، بينما كانت عينا ربيكا مسلطتين على يديه وهما تقودان. وتمنّت أن تلمس هاتين اليدين مرة ثانية، وأن تضمّهما وتتحسّسهما برفق. ويبدو أن بيير شعر بما يدور في خاطرها فرفع بصره نحوها. وشعرت بسعادة لغياب الضوء في السيارة، وإلاّ لقرأ التعبير الذي ارتسم على وجهها أو تورد وجنتيها. وأحسّت أنه بدأ يبطىء في قيادة السيارة، عندما قال بول:

«لقد وصلنا تقريباً. هذه هي المنطقة».

وأشار هرمان إلى أن السيارتين ارتطمتا بالأشجار.

هزّ بيير رأسه وسأله:

«هل عُرفت شخصية الركاب؟»

«أجل. ميشيل ميرديث، و ديانا هيوارث».

عضّ بيير شفته، وقال:

«فهمت. إنه ميشيل الذي».

«أجل».

«يا إلهي ...! هذا الأبله!»

«من المحتمل أن يكون قد مات!»

«ولكن زوجته لم تمت، وهي وحدها التي سوف تتحمّل وطأة المصاب. أليس كذلك؟»

هزّ بول رأسه، وقال:

«أعتقد ذلك».

من الواضح أن الرجل الميت كان يقف بسيارته في صحبة امرأة أخرى ليست زوجته، وهذا سبب ضيق بيير. وكيف له أن يصدر حكماً بإدانة الرجل الميت

وهو نفسه انغمس في علاقة معها؟ وتطلّعت إلى وجهه الذي بدا عابساً، وقاسياً. وتساءلت: لماذا لا ترضى بديلاً عنه من بين جميع الرجال الذين عرفتهم؟

واقتربت السيارة من نور مصباح السيارة المحطّمة. وبرز رجل من خلال الضباب واقترب منهم، واجتاز قطعة من الحديد كانت منذ وقت قريب سيارة ميشيل ميرديث الفاخرة. وغادر بيير سيارته، وحذا رفيقاه حذوه، وانضما إليه وهو يتحدّث إلى هارمان، وسأله:

«ماذا حدث؟»

وراح هارمان يروي لهم أن سائق اللوري يعاني من اضطراب شديد، وهو الآن يتناول الشاي الذي قدمه له. ثم أردف يقول:

«أظن أن ميشيل قتل على الفور».

وراح هارمان يمسح راحته فوق جبينه وكأنه يريد أن يمحو من ذاكرته صورة الدماء التي شاهدها. وتقدّمت ربيكا وسألت:

«وماذا عن المرأة. هل هي على قيد الحياة؟»

«أجل. إنها على قيد الحياة».

قال بيير فجأة:

«إن الآنسة ليندسي ممرضة، ويمكنها أن تلقي نظرة على ديانا. أين هي؟»

«هناك».

وقادها هارمان. واجتازا السيارة المهشمة إلى حيث كانت ترقد جثة نصفها على الطريق ونصفها الآخر على الحشائش، وقد بلّل الضباب ثوبها، وكانت ربيكا تعرف جيداً أنّ الجسم لا بدّ أن يظل دافئاً حتى تصل عربة الاسعاف. وعلى ضوء المشاعل والمصابيح التي أحضرها بول، استطاعت ربيكا أن ترى امتقاع لون وجهها. وعندما ركعت وأمسكت بيديها أحسّت بهما مجمدتين.

صاحت ربيكا في الرجال، وقالت:

«أين البطانيات؟ بيير. أحضرها من المقعد الخلفي لسيارتك!»

امتثل بيير لطلبها، بينما أخذت ربيكا تفحص الفتاة فرأت جرحاً في رأسها ينزف دماً على الأرض. وقد برزت عظمة من ذراعها تقع فوق مرفقها تماماً. بالاضافة إلى بعض الندوب الصغيرة، وانتفاخ بجوار أذنها. فقامت ربيكا بمسح الدماء من فوق وجهها بمنديلها، وحاولت أن تصنع منه ضمادة تضغط بها على الجرح لتمنع النزيف.

وعندئذ عاد بيير بالبطانيات فأخذت تدثرها بها، وهي تأمل أن تأتي سيارة الاسعاف سريعاً. وكان من الواضح وجود كسر في ساقها إلى جانب بعض الاصابات الداخلية التي لا يمكن الكشف عنها في هذا الضباب الكثيف.

وتوجه بيير للتحدث مع سائق اللوري، ونهضت ربيكا. وسألت:

«أين يوجد الرجل الآخر؟»

أجاب هارمان بقلق:

«موجود في سيارته يا آنسة. أنت لا ترغبين في رؤيته. أليس كذلك؟ ليس هناك شيء يمكنك أن تفعليه من أجله».

«ربما. ولكن يجب أن أتأكد أولاً».

قادها هارمان إلى حيث يوجد حطام السيارة، وألقت عليه ربيكا نظرة وتركته. عندما تبينت ألا جدوى من مساعدتها. وفي هذه الأثناء دوى صوت بوق سيارة تعلن عن قدومها، فانضمّ إليهم بيير وقال:

«يبدو أن سيارة الاسعاف قادمة. من المستحسن أن يذهب سائق اللوري إلى المستشفى. إنه مضطرب للغاية.»

هزّ هارمان رأسه بأدب، وقال:

«أجل يا سيدي. يمكنك أن تعود إلى المنزل ودع الأمر لي».

قالت ربيكا:

«لا بد أن أبقى وأتحدث إلى الشخص الذي بعثت به المستشفى في سيارة الاسعاف. فقد يحتاج إلى مساعدة».

تنهد بول وقال:

«هيا بنا يا ربيكا. إنني تجمدت. ليس لدينا شيء آخر يمكن أن نفعله».

تضايق بيير من سلوك ابنه، وقال له:

«إن شئت أن ترحل، فخذ السيارة. وسأعود مع ربيكا في سيارة هارمان».

أحنى بول ظهره، وقال:

«الجو رهيب، يمكننا احتساء بعض الشراب حتى يبعث الدفء في أجسادنا».

ضغطت ربيكا شفتيها وقالت:

«اذهب أنت يا بول، وسأبقى أنا هنا. عد إلى البيت كما قال أبوك».

«ماذا تريدين أن تؤكديه بوجودك هنا؟ أنت عاجزة مثل الأخرى».

توردت وجنتا ربيكا وقالت:

«لا تكن أحمق. يا بول».

ثم جلست في جوار ديانا هيوارث وأردفت تقول:

«لا أرغب في تركها. هذا كل ما في الأمر!»

تمتم بول بطفولة، وقال:

«حسناً. سوف تتجمدين هنا!»

ثم سار نحو السيارة وهو يدمدم، فتطلعت إلى وجه بيير القلق. فقال لها:

«يجب أن أعتذر نيابة عن ابني».

وتركها، وذهب ينتظر وصول سيارة الاسعاف. وجرت الأحداث سريعة. إذ وصل رجال الشرطة وعندما عرف المفتش شخصية بيير. أسرع بإتمام الاجراءات، وجاء رجال المطافىء ليرفعوا بقايا جثة ميشيل ميرديث من بين حطام السيارة، وبعد قليل رحلت سيارة الاسعاف بالقتيل والمصابين. وكان

اللوري غائصاً في حفرة تقع على جانب الطريق، فقام رجال الاطفاء بمساعدة هارمان و بيير على رفعه. ودهشت ربيكا عندما رأت بيير يسند كتفه إلى مؤخرة اللوري ليسهم في دفعه إلى الطريق العام، فالتقطت أنفاسها، ولكنها وقف واجمة عندما رأت بيير يخرج من الحفرة، ويدعك كتفه بيده. ثم التفت إلى هارمان يسأله:

«أين سيارتك اللاندروفر، سأعيدها لك غداً».

قال هارمان باحترام:

«إنها تقف هناك يا سيدي. سأبقى حتى ينتهي المسؤولون من مهمتهم وسأوافيك بتقرير كامل في الصباح».

«حسناً... هيا نرحل يا ربيكا».

ساراً في صمت حتى بلغا السيارة، وأحست أنه قد أرهق نفسه في دفع اللوري فثارت الشكوك في عقلها. سألته:

«هل أنت بخير؟»

«بالطبع. وأنت هل تشعرين بالبرد؟»

تنهدت وقالت:

«لا. لا أشعر بالبرد. فالمعطف يدفئني. بيير. هل أنت متأكد من أنك بخير؟ يجب أن تخبرني إذا كنت تشكو من ألم؟»

«وماذا ستفعلين؟»

«أنا ممرضة».

«بالطبع أنت ممرضة! لقد نسيت!»

تنهدت ربيكا. وكان من الواضح أن بيير لن يفضي لها بما يحسّ من ألم. وتساءلت: ما الذي يجبرها على الشعور بالضيق. على العموم إن شيللا في انتظاره بالبيت. ولا ريب أنه سوف يستشيرها إذا كان يشعر بأي ألم. يجب عليها

أن تتوقف عن مثل هذا التفكير. فهذا يفيدها كثيراً.

وأوقف السيارة عند البيت. ودخل عبر باب يؤدي إلى بهو صغير توضع فيه الأحذية. وأدوات لعب الغولف، وأجهزة رياضة أخرى.

انتظرت ربيكا أن يخلع بيير معطفه، ولكنه لم يفعل، وإنما أشار إلى باب يفضي إلى الصالة الرئيسية. وفجأة قال لها:

«واصلي السير».

ضغطت ربيكا على شفتيها وسارت نحو الباب. ولكن فجأة أدارت رأسها تنظر وراءها. وتوقفت أنفاسها عندما رأت الألم على وجهه وصاحت بفزع:

«بيير. ما هذه البقعة التي تلطخ معطفك؟»

مس شعره براحته مساً رقيقاً، ثم قال نافد الصبر:

«بحق السماء. اذهبي. هل تظنين أنني أرغب في أن تريني على هذه الحالة. اذهبي!»

٨ ـ الحقيقة الكاملة

تجاهلت ربيكا أمر بيير فتوجهت إليه، ولمست البقعة التي لطخت معطفه، فأحست بسخونة لزجة. وصاحت قائلة:

«بحق السماء. ماذا فعلت؟»

«إنني في غنى عن شفقتك. إنه مجرّد جرح. هذا كل ما في الأمر. اللوري اللعين مزق جلدي».

«أرجوك. انزع معطفك. دعني أرى الجرح».

تردد بيير فترة ثم فك أزرار معطفه، وسحب ذراعه السليمة منه وكشف الألم الذي ارتسم على وجهه عن صعوبة سحب ذراعه الأخرى من الكم الآخر. فزعت ربيكا من كمية الدم المتدفق من الجرح. ولكنّها لم تتفوه بكلمة، لأنها أدركت أن أية كلمة تصدرها قد تدفعه إلى منعها من مواصلة علاجه. وأخيراً خلع قميصه، وعيناه تراقبان ملامح وجهها. كان صدره أسمر اللون، نامي العضلات، وحاولت ربيكا ألاّ تبدو مضطربة أثناء الكشف عن كتفه، ولكن كان من الصعب عليها أن تتماسك عندما أحست بحرارة بشرته.

كان الجرح في الجزء العلوي من ذراعه، وبرغم النزيف الشديد إلاّ أن الجرح لم يصب الشريان التاجي. وأخيراً قالت ربيكا:

«إنني محتاجة إلى ماء ومطهر وبعض الضمادات. هل يوجد منها شيء في البيت؟ يجب أن يفحصك طبيب».

«هناك خزانة إسعاف موجودة في الحمام. هل يمكنك الذهاب إلى هناك؟»

«أعتقد ذلك».

«أوه. هل أطلب من شيللا أن تفعل لي ذلك؟»

وشعرت بأنه يحرجها وهو في أشد حالات ألمه. ورفع ملابسه ووضعها فوق كتفه السليمة، وأشار عليها بأن تتقدّمه في السير عبر البهو، وعندما بلغا سلم البرج قال لها:

«سنسلك هذا الطريق، لا أريد أن ألفت نظر أحد إليّ».

«كما تشاء».

سبقته ربيكا في صعود السلم، وهي تجول ببصرها حولها من حين إلى آخر، لتتأكد من خلو الطريق. كان شاحب الوجه، وعيناه عابستين. وكانت تعلم أنه لا يهتم كثيراً بمساعدتها له. وتساءلت: هل من الممكن الحصول على حقنة للوقاية من التسمم، في الوقت الذي كان لا يهتم هو فيه بشيء. أما هي فكانت حريصة جداً على حياته.

ترنّح بيير عندما بلغ آخر درجات السلم، فقالت له:

«غرفة نومي هنا. امكث هنا، وسأذهب لاحضار الضمادات. فقط أخبرني أين أذهب!»

«أشكرك، ولكنني أفضل الذهاب إلى غرفتي».

صمت قليلاً وهو يحارب موجات الدوار التي داهمته. ثم استطرد يقول:

«إنها ليست بعيدة!»

نطق ذلك وتهاوى على الأرض. فتوقفت أنفاسها، وركعت بدورها على ركبتيها إلى جواره، فوجدته فاقد الوعي. وكان واضحاً أن كمية الدم التي فقدها إلى جانب القوة التي استنفدها في دفع اللوري قد سلبته طاقته لدرجة الغيبوبة.

وأدركت أنها لا تستطيع أن تنقذه وحدها، فعادت تنزل درجات السلم بسرعة.

وأخذت تبحث عن المطبخ. ووجدت جيليان فطلبت إليه أن يستدعي طبيب السيد سانت كلير. ثم تعاونا سوياً على حمله إلى غرفة النوم التي أعدت خصيصاً لربيكا. وأخذت تنظف الجرح حتى يصل الطبيب. وكان جيليان يمتثل لأوامرها، بدون أن يطرح عليها أية أسئلة. كان متفهماً ومتجاوباً ويساعدها مساعدة سريعة وفعّالة.

وعندما وصل الطبيب، سألت أديل عما يجري، وخرج بول إلى الصالة وواجه ربيكا بحدّة قائلاً:

«جيليان يقول ان أبي فاقد الوعي . في غرفتك!»

توردت وجنتا ربيكا، وقالت:

«هذا صحيح ا بول. إنها قصة طويلة. لا أستطيع أن أرويها الآن. لقد جرح في الحادث، ثم انهار».

هزّ بول رأسه، ودفعت أديل مقعدها المتحرك، لتسمع آخر الحوار الذي دار بينهما، ثم قالت:

«لماذا لم تخبريني فوراً، بدلاً من أن تأخذيه بهذه الطريقة المستترة؟ أنت لا شيء في هذا البيت يا آنسة، ولا تعتبرين واحدة من أفراده، فلا تظني أن من حقك إصدار الأوامر هنا».

تنهّدت ربيكا، ووصل الطبيب، وودّت أن تصحبه لكي تكون موجودة أثناء فحص بيير، وتشرح له ما حدث، قالت:

«لا أريد إزعاجك. كان يساعد الرجال على رفع اللوري من الحفرة، فتمزقت كتفه. وتهاوى وهو يصعد درجات السلم».

قال بول غاضباً:

«إلى غرفتك؟»

«لا. بالطبع لا. بحق السماء. هذا ليس الوقت أو المكان الذي نتجادل فيه حول ما

حدث. يجب أن أصعد اسمحوا لي».

كان باب غرفة نومها مفتوحاً، ودكتور مورتيمر يفحص الجرح، وكان بيير يتطلّع إلى الطبيب.

صاح بيير في اللحظة التي دخلت فيها ربيكا الغرفة:

«يا إلهي. يا مورتيمر. إنك تبدّد وقتك هنا. إنني لا أريد طبيباً».

وهنا التفت الطبيب إلى ربيكا، وسألها عما إذا كانت قد ضمدت الجرح، وعن حقيقة ما حدث.

ولكن بيير صاح قائلاً:

«لقد أخبرتك بما حدث. إنه جرح في كتفي».

وفي هذه اللحظة وصل بول و شيللا، ووقفا مشدوهين عند باب الغرفة، فضغط بيير على شفتيه وصاح:

«ارحلوا كلكم. إذا كنت محتاجاً لطبيب: فإنني في غنى عن جمهور المشاهدين!»

قال بول:

«إنني أتدرب لكي أصبح طبيباً، وشيللا ممرضة».

قال دكتور مورتيمر:

«من فضلكم. هذه السيدة سوف تساعدني. وسأتحدث معكما فيما بعد».

غضب بول وغادر الغرفة بصحبة شيللا، وصفق الباب وراءهما. والتفت بيير إلى ربيكا وقال:

«يمكنك أن تذهبي أنت أيضاً. إنني لا أحتاج إلى ممرضة».

تجاهله دكتور مورتيمر وقال لربيكا:

«ناوليني حقيبتي من فضلك. لا تأبهي به. بيير ليس بالرجل الذي يرضى بالاعتماد على شخص آخر».

رفع بيير عينيه إلى السماء، ولكن ربيكا شعرت بالارتياح لحديث

الطبيب، ومع هذا أحست أن بيير يكرهها. وعندما انهى الطبيب من مهمته، دفع بيير ساقيه نحو الأرض. وانتصب بقامته تمهيداً لمغادرة الفراش، ولكن ربيكا أدركت من امتقاع وجهه أنه لم يستعد بعد صحته تماماً، بينما وضع دكتور مورتيمر يده بحزم على كتفه السليمة وقال له:

«يجب أن تستريح في الفراش. لقد فقدت كمية كبيرة من الدم. وإذا تصرفت بحماقة، فإنني سأحتجزك في المستشفى».

هزّ بيير رأسه رافضاً الامتثال لتعليمات الطبيب، ونهض واقفاً على قدميه فترنح قليلاً. ثم عاد إلى الرقاد وقال متبرماً:

«حسناً. حسناً. سأمتثل لتعلياتك».

التفت الطبيب إلى ربيكا، وقال لها:

«سأراك غداً. هل ستبقين هنا حتى الغد؟»

«يجب أن نعود، بول وأنا، غداً إلى لندن».

«مفهوم. ولكنني غير مستريح لمنظر الجرح، فما رأيك؟»

«ماذا تعني؟»

«ماذا كان يحمل اللوري الذي دفعه بيير؟»

«لا أعرف. ولا أكاد أتذكر الاسم المكتوب على جانبيه. لا بد أن هارمسان يعرفه».

«سوف نرى. إن تنظيفك الفوري للجرح بمطهر، ربما حال دون إصابته بتسمم وفي أي حال سأحضر غداً للكشف عليه. كل ما كنت أريده هو أن يظل الجرح تحت بصرك».

«أنت تعرف أن الآنسة ستيفنز ممرضة».

«ممرضة أديل؟»

«أجل».

«إذا سألتني عن هذه الشابة، فإنني أقول إنها موجودة هنا لسبب واحد، وهو أن تقتنص الفرصة الكبيرة!»

شعرت ربيكا بالبرودة تنشب أظافرها في أمعائها، وسألته:

«ماذا تقصد؟»

«الأمر واضح. أليس كذلك؟ إنها جاءت إلى هنا بعد وفاة جنيفر، وحيثما يوجد بيير، تكرّس جهودها من أجله. وليس لمريضتها. هذا ما لاحظته عندما زرت آديل».

«مفهوم. ومع هذا. يمكنها أن تقدم بعض المساعدة».

ابتسم مورتيمر لأول مرة، وقال:

«أنا أخبرتك. سأعوده ثانية، حتى أتأكد من أنه معافى تماماً».

بعد أن رحل دكتور مورتيمر، دخلت ربيكا إلى غرفة الجلوس لتواجه الآخرين. وكانت تتمنّى أن تتجنّب هذا الموقف، وتتوجّه إلى فراشها مباشرة، ولكن هذاالسلوك كان غير معقول، وفي نفس الوقت كانت السيدة جيليان تعيد تنظيم فراشها فرفعت الملاءة الملوثة بالدماء وأكياس الوسائد، واستبدلتها بأغطية نظيفة بعد أن توجّه بيير إلى غرفته، وساعده جيليان على الرقاد في الفراش.

وجاء الآن دور ربيكا لكي تتلقى الأسئلة، وكانت آديل كعادتها هي التي بدأت بالحديث، قائلة:

«حسناً يا آنسة. نحن في انتظار تفسير لما حدث. قولي لنا ماذا تأملين تحقيقه بإخفاء ما حدث عنا؟ أن تفوزي بفرصة لصالحك مع زوج شقيقتي؟»

تهاوت ربيكا جالسة على مقعد واسع، وهي تشعر بأن ساقيها لا تقويان على حملها، وقد انتابها دوار، ولم تقدر على التطلّع إلى بول، وقالت:

«إن كل شيء حدث سريعاً».

أشعل بول سيكارة وجذب نفساً عميقاً، وقال مقاطعاً كلامها:

«هل تقولين إن ما حدث لم يستغرق سوى لحظة قصيرة؟ إنني أريد أن أعرف كيف حدث ذلك؟»

قالت ربيكا وهي تحدّق فيه:

«لقد أخبرتك. إن اللوري كانت به شظية معدنية بارزة، مزقت كتف والدك».

وراح بول يحملق في طرف سيكارته، وقو يقول:

«أعتقد أنك ظننت بأن وجودك هنا سوف يتيح لك فرصة ثانية لكي تأسريه بعينيك».

صاحت ربيكا وفي صوتها نبرة يائسة:

«بول».

ارتسمت علامات الخجل على وجه بول، وهو يقول:

«حسناً. إذا كان الأمر على هذه الصورة فإنني شغوف لمعرفة مدى علاقتك بأبي في فيجي».

تنهدت ربيكا. ولم تستطع أن تحجب الحيرة التي بدت على وجهها. وتطلّعت بوجه غاضب إلى آديل، وتساءلت عما يمكن أن تكون قد قالته عنها في غيبتها، وشعرت بأنّ شيئاً لم يؤذيها بعد كل ماحدث فقالت:

«ولم لا تسأل خالتك؟»

وتقدم توم بريانت إلى الأمام، ولم تلاحظ ربيكا وجوده، إلاّ عندما قال:

«مهلاً يا بول. كفّ عن هذه الحماقة. أظن أن ربيكا قد أدّت واجبها نحو والدك. وكما قال دكتور مورتيمر إنه خاط الجرح باثنتي عشرة غرزة، ولا أظن أنك مستاء لعدم استشارتك قبل استدعائه. يا رجل. اشكر السماء، لأن الاصابة لم تكن أخطر من ذلك».

قال بول بلا حياء:

«لا بد أن تتكلم هكذا. يا توم!»

قال توم وقد نفد صبره:

«أوه *كفى، قل لي ماذا حدث؟ لماذا تطالبها بأن تقوم بإبلاغك عقب الحادث مباشرة؟ ماذا كنت ستفعل أكثر مما فعلت ربيكا؟»

قاطعته آديل فجأة:

«إن بول ابن بيير؟»

«وماذا في ذلك؟»

رفعت آديل كتفيها بعصبية وقالت:

«أنت تحاول أن تجعل من ربيكا بطلة. أليس كذلك يا توم؟»

نظر إليها باستعلاء، وقال بسخرية:

«حسناً. بما أنكم جبهة مكونة من ثلاثة أشخاص. فلا بدّ أن يميل ميزان العدل إلى جانبكم. أليس كذلك؟»

احمرّت وجنتا آديل خجلاً، وقالت:

«حسناً انتهى الأمر. وليس أمامنا شيء يمكننا أن نفعله الآن».

وتطلّعت إلى ربيكا ملياً، وقالت لها:

«سترحلين غداً!»

نهضت ربيكا واقفة، وقالت:

«بل سأرحل الآن!»

وغادرت الغرفة. قبل أن يتفوّه أحدهم بكلمة. وعندما بلغت الصالة، أسندت ظهرها إلى الحائط وشعرت بوهن يسري في أوصالها. وكان من الحماقة أن تدع أي شيء تقوله آديل يثير أعصابها. ولكن آديل نجحت في مهمتها!

سارت قليلاً في الصالة عندما سمعت باباً يصفق وراءها، وألقت ببصرها سريعاً. وتوقعت أن ترى بول، ولكنها رأت توم بريانت، فشعرت بارتياح بالغ. على الأقل كان هو الشخص الوحيد الذي آمن بأن ما فعلته كان صواباً.

قال لها:

«تعالي إلى المكتبة. أنت منزعجة، ولا يمكنك أن تأوي إلى الفراش بهذا الحالة. يمكننا أن نحتسي شراباً. سيساعدك على الاسترخاء».

ترددت ربيكا قليلاً ثم ابتسمت، وقالت:

«لا مانع. شكراً».

أعد توم الشراب. وجلسا على مقعدين متقابلين، وكانت ربيكا تحتسي شرابها، عندما سألها:

«اخبريني ما هي علاقتك ببول بالضبط؟»

«ليس بيننا أية علاقة. إننا مجرّد صديقين. هذا كل ما في الأمر».

«مفهوم. وطبعاً بول لم يعرف أنك تعرفين أسرته».

«كلا».

«أظن أنك لم تكوني على علاقة طيبة بآديل!»

«كانت الحرب بيننا خفية طوال العام».

«إنها شخصية ليس من السهل التعامل معها، فهي تكن لي العداء ولكل شيء في الحياة، حتى أسرتها، وهي ضدّ كل شخص يجرؤ على مناقشتها!»

قالت ربيكا ببطء:

«اعتدت أن أشفق عليها، ولكنها لا تريد الشفقة. على الأقل مني!»

«لا. لم تشعر بالشفقة مطلقاً. ولهذا فهي إنسانة حقود، ولو أنها تخلّصت من حقدها بطريقة صحية، لأصبحت شخصية مختلفة تماماً. ولكنها لا تستطيع. إنها لم تغفر لبيير زواجه من جنيفر. كما أنها لم تغفر لجنيفر فعلتها. إن أفراد أسرة كلاود لا يهتمون بشيء إلاّ بأنفسهم فقط».

«لماذا تخبرني بكل هذا؟»

«لديّ إحساس بأنك شغوفة لمعرفة ذلك».

«كنت. ولكنني في الحقيقة أصبحت لا أهتم لشيء. أليس كذلك؟»

«لا. ليس كذلك!»

«ماذا تقصد؟»

«إنني أتذكر بيير منذ ثلاث سنوات. عندما عاد من رحلته التي قام بها إلى ياساواسي».

«ماذا حدث؟»

«أجل. شيء ما حدث هناك. لم أكتشف كنهه، ولكن الليلة عندما رآك في الصالة. كل شيء عاد إلى ذاكرتي!»

واعتدل توم في جلسته، بينما ارتجفت ربيكا قليلاً، وقالت:

«فهمت».

«إذا كنت تشعرين بالعزاء الآن، فلا بدّ أنك وجهت له لطمة خفيفة وجميلة هناك. لأنه ظل شهوراً يعيش في جحيم. لا يستطيع العمل، والسماء وحدها تعرف كيف عاش حياته بعد ذلك».

«كان متزوجاً. أليس كذلك؟»

«متزوجاً؟ حسناً. يمكن أن تسميه هكذا. ولكن جنيفر لم تكن زوجة. إذا كان هذا ما تقصدين حقاً!»

وقفت ربيكا وقالت له:

«هذا شيء لا يعنيني. منذ متى وأنت تعمل مع والد بول؟»

تنهد توم وقال بتعجب:

«لا أعرف. ربما عشرين سنة. ولكن ما أهمية ذلك؟»

ثم استطرد:

«هل أخبرتك أديل بشيء عن أختها؟»

«أخبرتني بأنها كانت تحب بيير، وجاءت جنيفر واختطفته منها!»

«وهل صدّقت كلامها؟»

«أليست هذه هي الحقيقة؟»

«طبعاً. لا. هل رأيت بيير و آديل معاً؟»

«لا أعرف. أعتقد أن آديل كانت أكثر نشاطاً عندما كانت شابة».

«فعلاً كانت نشيطة، ولكن ليس إلى الحد الذي تعقد فيه الصداقات مع الشبان. وكان هذا سبب كراهيتها لشقيقاتها. كن يخرجن دائماً في صحبة رجال مختلفين. وكان الأمر قاسياً عليها. لأنها لم تستطع أن تتخذ لنفسها صديقاً».

«حسناً، في أية حال، إذا كانت آديل تحب أن تتصوّر أنها جذبت انتباه بيير ذات مرة، فهل هذا الأمر هام؟»

«إنه هام. ما دام كل ما قالته عنه لا يعدو أن يكون سلسلة من الأكاذيب!»

«انظر يا توم. إن ما حدث بيني وبين بيير في فيجي، أمر انقضى منذ أمد طويل. كنت في حياته مجرّد تسلية. واحدة من النسوة العديدات في حياته. على ما أعتقد!»

«هل تعتقدين ذلك؟ إن بيير له أخطاؤه. أنا أعرف ذلك، ولكنه ليس حيواناً!»

رشفت ربيكا شرابها على مهل، وقالت:

«توم. أنت صديقه الأثير، ولكن لا تطلب مني أن أثق برجل يقيم علاقة مع امرأة أخرى. بينما له زوجة تعيش في بيته».

«لا تتسرعي في الحكم عليه. من الواضح أنه ليس لديك أية فكرة عما يجري له».

«حسناً. جنيفر أنجبت له ابناً. أليس كذلك؟»

«أجل. بول هو ابن بيير. وهو لم ينكر ذلك».

«أرأيت! بالاضافة إلى أنه أخبرني في فيجي بأنها تعيش خارج باريس واليوم اكتشف أنه اشترى هذا المنزل منذ خمس عشرة سنة. كل شيء قاله كان مجرّد أكاذيب!»

«بيير اشترى هذا المنزل لجنيفر».

«ماذا تقصد؟»

«سأشرح لك. بيير يمتلك أربعة منازل فضلاً عن قصر سان سوسي ومنزل باريس. وعنده فيللا في جنوب فرنسا، ومنزل في جاميكا، وقد أقامت جنيفر في جميع المنازل ولكنها لم تشاركه المعيشة فيها. كانا منفصلين. هل فهمت؟»

لم تصدق ربيكا أذنيها، ولكن توم استطرد يقول:

«إليك المزيد. جنيفر كانت امرأة لعوباً. تحب الانتقال بين الرجال. وبيير لم يستطع قبول هذا الوضع. فاحتقرها. كانت تبحث عن ملذاتها في أماكن متعدّدة!»

شعرت ربيكا بالغثيان وقالت:

«أوه. لا».

«أجل، كان بول السبب الوحيد الذي يفتدي هذا الزواج، ومن أجله لم يقطع بيير المال عن زوجته. لم تكن لدى بول أية صورة عن الحياة التي اضطر أبوه أن يعيشها. لأنه كان يمضي أيامه بعيداً عنه. فهو يعيش في مدرسة داخلية. ثم في الجامعة. وكان الخلاف خفيّاً عليه. وكان كل ما يشعر به أن والديه لا ينعمان بحياة زوجية سعيدة. وكانت جنيفر من جانبها تحرص على أن تتجنّب مقابلة زوجها. ولا أحد ينكر الهبة السماوية التي أتاحت بموتها أن يتمتّع بيير بحريته!»

وقفت ربيكا وقد جحظت عيناها، وسألته:

«كيف. كيف ماتت؟»

«أصيبت بمرض لا شفاء منه. إن آل سانت كلاود أسرة عليلة».

«عندما أفكر في ذلك. أرى أن بول يسير في نفس الطريق!»

«كان بيير في التاسعة عشرة من عمره عندما تزوج جنيفر، وكانت هي أكبر منه سناً. وقد دفع ثمن مراهقته التي تميزت بعدم المسؤولية!»

«إن أديل جعلت الأمور تبدو مختلفة».

«لا بد أن تفعل ذلك. إنها امرأة ملتوية. كل الأسرة ملتوية و دنيس أخت جنيفر الصغرى انتحرت عندما بلغت سن الخامسة والعشرين».

«إنها قصة رهيبة. أديل لم تخبرني بشيء من ذلك. لقد جعلت الأمور تبدو وكأن جنيفر هي الشخص البريء في الأسرة».

تمتم توم قائلاً:

«أنا أدركت الموقف كله. حسناً. هل تنوين إبلاغ بيير؟»

«إبلاغ بيير؟ أخبره بماذا؟»

«بأنك الآن تعرفين الحقيقة».

زوت ربيكا ما بين حاجبيها، وقالت:

«لا أستطيع أن أفعل ذلك. فضلاً عن أنه ليس مهتماً بي».

«ليس له زوجة الآن».

أنهت ربيكا احتساء الشراب، وقالت:

«أنت لا تتصوّر، بعد كل هذا الوقت. أظن أنك تفترض أشياء كثيرة».

«ربما أكون كذلك. ولكن ألا تحبين اكتشاف الأمر؟ أم أنك أصبحت تهتمين ببول؟»

«لا. لا. ليس بول. إنه صغير جداً. فضلاً عن أنني لم أستطع».

ثم توقفت عن مواصلة الكلام، وتطلّعت إلى ساعتها، ثم صاحت:

«هل تعرف أننا في منتصف الليل؟ يجب أن نأوي إلى الفراش!»

ابتسم توم وقال:

«هذا اقتراح مغر. بدأت أفهم لماذا يريدك بيير!»

٩ ـ الشاي يغلي بمرح

استيقظت ربيكا في صباح اليوم التالي، وغادرت غرفتها إلى البهو الرئيسي، حيث وجدت في الصالة فتاة منهمكة في تنظيف المدفأة. وسعدت برؤية شخص غيرها، ووصلت حيث تقف الفتاة وسألتها:

«من أنت؟»

«أنا إليزابيث. مساعدة السيدة جيليان».

«حسناً يا إليزابث. هل تعرفين متى يقدم طعام الافطار؟»

«السيدة جيليان عادة لا تعد طعام الافطار لأحد سوى السيد بيير عندما يكون في المنزل. الآنسة آديل وممرضتها تتناولان الطعام في جناح الآنسة آديل. أما السيد بول فإنه نادراً ما يهتم بالطعام لأنه يفضل الاستغراق في النوم».

«متى يتناول السيد بيير طعامه في الصباح؟»

«السيد بيير لا يستيقظ عادة قبل التاسعة».

«أوه. أخبريني. أين أجد الطباخة؟»

«السيدة جيليان؟ إنها في المطبخ. هل ترغبين في رؤيتها؟»

«أجل. هل يمكنك أن تريني الطريق؟»

«أجل يا آنسة».

واتبعت ربيكا إرشادات الفتاة. ومرّت من باب يؤدي إلى ممر يفضي إلى

المطبخ. وعندما دفعت الباب، وجدت السيدة جيليان منهمكة في إعداد اللحم والسجق فوق الموقد. فتطلعت المرأة العجوز في دهشة عندما رأت ربيكا أمامها، وقالت:

«آنسة ليندسي؟ هل يضايقك شيء؟»

«لا. إطلاقاً. هل يمكنني أن أحمل صينية طعام السيد بيير إليه في غرفته؟»

ازدادت دهشة السيدة جيليان، وتوردت وجنتاها، وقالت متلعثمة:

«حسناً. أنا. أنا لا أرى أي مانع. هل تحملينها الآن؟»

راحت ربيكا تراقب السيدة جيليان وهي تعد الصينية، وبعد أن انتهت من مهمتها، سألت ربيكا:

«وماذا عن إفطارك؟ ماذا تحبين من ألوان الطعام».

«أنا لا أشعر بالجوع في الصباح. وسأكتفي بقليل من القهوة عندما أعود».

ثم ابتسمت ربيكا، وحملت الصينية، والآن عليها أن تواجه اللحظة الصعبة. وسألت السيدة جيليان وهي تسير نحو الباب:

«أخبريني. أين تقع غرفة السيد بيير؟»

وبدت الدهشة بوضوح على وجه السيدة جيليان التي كانت تظن أن ربيكا كانت تشارك بيير النوم في غرفته. واستطاعت ربيكا أن تبلغ الغرفة بسهولة تبعاً لارشادات السيدة جيليان. وطرقت الباب، ولكنها لم تتلق أية إجابة، فأدارت المقبض، ودخلت الغرفة، وأغلقت الباب وراءها.

وجدت بيير ما زال مستغرقاً في النوم، ووجهه شاحب اللون. ووضعت الصينية، وتوجهت لتزيح الستائر جانباً. وتطلعت إليه في فراشه، فوجدته أكثر شباباً وجاذبية، وخفق قلبها حتى كاد يقفز من حلقها. وعرفت أنها أحبته، وما زالت تحبه.

أزعجه الضوء الخافت الذي سرت أشعته إلى الغرفة. وتململ في فراشه قبل أن

يفتح عينيه، وعندما رأى ربيكا، حملق فيها غير مصدق وصاح بها متسائلاً:
«ربيكا!»
ويبدو أنه استعاد وعيه، فغير من نبرة صوته، واستطرد يقول:
«بحق السماء. ماذا تفعلين هنا؟»
سارت ربيكا نحو الفراش، ولاحظت نقاء الضمادة الموضوعة على ذراعه، فقالت:
«صباح الخير يا بيير. لقد أحضرت لك طعام الافطار. كيف حالك هذا الصباح؟»
ارتفع بيير بجذعه وارتكز على مرفقه فسقطت الأغطية حتى وسطه. قال لها ببرود:
«لماذا قدمت إلى هنا؟ إنني لا أحتاج إلى أية نصيحة طبية منك!»
«إنني لم أحضر من أجل أن أعطيك أية نصيحة. ولكني أريد أن أتحدث معك».
تمتم قائلاً:
«إذن. تكلمي».
ضغطت ربيكا على شفتيها، وقالت متلعثمة:
«أنا. أنا. أريد ... أن ... أخبرك. بأنني. بأنني أعرف كل... شيء عن جنيفر!»
قال بمرارة:
«حقاً!»
«أجل. آديل أخبرتني أنك. أنك كنت عازماً على الزواج منها، ولكنك هجرتها وتزوجت أختها جنيفر. ثم... ثم».
حملق بيير في وجهها غاضباً، وقال:
«صه! هل تظنين أنني أكترث بما أخبرتك به آديل؟ لقد قلت لك ذات مرة إنني لا أهتم بتقرير أخت زوجتي عني».

«ولكن ألا ترى أنني صدقتها؟»

«أجل، فعلت. صدقتها، ولم تستمعي إليّ. صدقتها. لأنك كنت جبانة، وكنت خائفة من التعبير عن عواطفك، وكنت أسيرة لضيق أفقك. كنت خائفة من الوقوع في الحب. إلاّ إذا كان محاطاً بكل الضمانات. والآن جئت إلى هنا لتقولي لي إنك تعتذرين عن كل شيء تفوهت به، وكل ما فعلته. ماذا تتوقعين مني؟ هل أقول لك ربيكا، إنني غفرت لك؟ هل أقول لك ربيكا، أنت بعثت السعادة إلى قلبي؟ هل أقول لك ربيكا، أنا حر الآن، فهل تتزوجينني؟ الجواب لا!»

وانزلق بجسمه وترك الفراش، فرأت أنه كان ينام شبه عار فأشاحت بوجهها عنه. فتمتم قائلاً:

«أترين. إنك أشحت بوجهك لأنك خائفة. وصدقيني. لديك كل الأسباب لخوفك!»

ضغطت ربيكا على راحتيها، وكان عليها أن تعرف أنه لا جدوى من أن تجيء إلى هنا، أو أن تشرح لهذا الرجل القاسي أنها وقعت فريسة بين يدي تلك المرأة الحقود التي لم تتمتع بأية ثقة بقدرتها على جذبه إليها.

وبخطوات مضطربة، سارت ربيكا نحو الباب، ولكنه أسرع ووقف أمامها. ومنعها من الهروب من هذا الاذلال. وقال بخشونة:

«لحظة. أريد أن أقول لك شيئاً قبل أن ترحلي. هل تنوين الاستمرار في رؤية ابني؟»

«حيث أننا نعمل سوياً في نفس المبنى، أرى أنه من المستحيل ألا أراه».

«عليك اللعنة. ليس هذا ما أعنيه، وإنما أسألك. هل يحبك؟»

«لا. بالطبع».

«لماذ بالطبع لا؟ أنت ... أنت دائماً امرأة مرغوبة! كم رجلاً يشك حبه منذ أن ...»

قاطعته ربيكا غاضبة:

«كيف... تجرؤ على أن تقول هذا؟»

ولم يلحظ بيير ثورتها. إذ أنشب أصابعه في كتفيها، وجذبها نحوه وهي تقاومه. وشعرت بصلابة عضلات صدره، فحاولت أن تطلق سراح نفسها في يأس مميت. وبعد لحظات تراخت مقاومتها، وتعلقت به. ولم تتصور أنه قد مضت ثلاث سنوات منذ أن احتواها بين ذراعيه وكأن ذلك حدث بالأمس. وشعرت أن ألم العذاب الذي كابدته قد تلاشى عندما بدأ يضمها بعاطفة محمومة.

وبمجهود كبير، انتزعت نفسها من بين ذراعيه. وهي تدرك أنها قد آلمته في جرحه فقد كانت تعي أنها في حاجة إلى الهروب منه قبل أن يغريها دفئه على الاستسلام له.

وفتحت الباب. بدون أن تجرؤ على النظر وراءها، وجرت بجنون عبر الممر المؤدي إلى البهو، حيث استطاعت أن تقف. وحاولت أن تستعيد رباطة جأشها، بالرغم من إشاعة الفوضى في تصفيفة شعرها وفك أزرار سترتها.

وتوجهت إلى غرفة نومها، وأغلقت الباب، واستندت بظهرها إليه. كان من الحماقة أن تذهب إليه، بل إن أكبر حماقة أن تسمح له بلمسها، لو لم تكن معزولة في هذا المكان، لاستطاعت أن ترحل على الفور من هذا المنزل، وتعود إلى لندن.

وبدأت ربيكا تهدىء من روع نفسها. وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة، وحان الوقت لأن تبحث عن بول لتعرف منه ما ينوي أن يفعله، وتمنّت أن يوافق على الرحيل قبل الظهر، فهي لا تستطيع أن تقابل بيير ثانية.

وعندما نزلت إلى الطابق الأول، وجدت بول في انتظارها فسألها:

«هل تناولت طعام الافطار؟»

«لا. لا أريد أي شيء. هل أنت مستعد للرحيل؟»

«أنا مستعد، وأنت؟»

«هل هناك سبب يدعوني إلى عدم الرحيل؟»

«ظننت أنك مصرة على رؤية أبي قبل رحيلك».

توردت وجنتا ربيكا بحمرة قانية، وقالت:

«أوه لا، لا. هل رأيته أنت؟»

هزّ بول رأسه وقال:

«أجل، رأيته».

«كيف... كيف حاله؟»

«إنه يشكو من ألم في كتفه. سيطلب من شيللا تضميد جرحه».

أحست ربيكا بطعنة نجلاء تنفذ إلى أمعائها، وقالت:

«هل ينوي أن يفعل ذلك».

«أجل ولم لا؟ إنها ممرضة كفء. إنك تتصرفين وكأنه مريضك».

«ألا نرحل؟»

«ألا ترغبين في رؤية شيللا وخالتي، لتقولي لهما وداعاً».

«لا».

«حسناً... السيارة في الخارج على أهبة الاستعداد للرحيل».

سارت السيارة في طريقها وقد تلاشى الضباب، وكانت أشعة الشمس تحاول أن تتسلل من بين ثنايا السحب. وأحست ربيكا أن الطريق طويل وهما عائدان إلى لندن واخترقا القرية. واتخذا سبيلهما تجاه ضواحي لندن، وتوقفا لتناول الطعام في أحد المطاعم القائمة على الطريق. وحول مائدة الطعام، قال بول:

«ألا تعتقدين أنك مدينة لي بتقديم بعض التوضيح؟»

«بالنسبة لأي شيء؟»

«إن خالتي آديل أخبرتني بما تظن أنني يجب أن أعرفه».

تماسكت ربيكا. ومنعت نفسها من الغضب، فهي لن تتيح الفرصة لآديل

لكي تثيرها ثانية. فسألته:

«وماذ قالت لك؟»

«أعتقد أنه ليس صحيحاً. أليس كذلك؟»

«لا أعرف ما قالته لك؟»

«قالت إنك. إنك وأبي كنتما عاشقين عندما زار فيجي».

شعرت ربيكا بغضب عارم. فكيف تجرؤ آديل على أن تذكر شيئاً مثل هذا؟ وكيف تجرؤ على تشويه سمعتها بهذا الأسلوب المهين؟ وابتلعت ريقها وقالت:

«لا... لم أكن وأبوك عاشقين. هل تصدقني؟»

«أجل، أصدقك».

«هل تصدقني؟ إنني مندهشة».

قال غاضباً:

«لماذا تقولين هذا؟ لقد أخبرتك بأنني أصدقك. أنا أعرف خالتي. إنها تبالغ أحياناً»

«تقول إنها تبالغ؟ إن خالتك شخصية حقود، مثيرة للمتاعب. صدقني إنها الحقيقة».

بدت الحيرة على وجهه، وقال:

«إنها لا تقصد الأذى».

«هل تظن ذلك؟ وعلى العموم هناك شيء أريد أن أوضحه لك. إنني أنا وأبوك لم نكن عاشقين، وإنما كان الواحد منا ينجذب إلى الآخر. حدث هذا منذ ثلاث سنوات في فيجي».

«لكن أبي، كان متزوجاً. هل تقصدين بأن هذا الأمر لا يعني شيئاً بالنسبة إليك... لكل منكما؟»

«بالطبع يعني شيئاً. أوه. إنها قصة طويلة، ولكن باختصار، إن خالتك شجعتنا.

وحرصت على ألاّ تخبرني بأن والدك بيير كان متزوجاً».

هزّ بول رأسه وقال:

«كنت أعلم أنهما ليسا على وفاق. وكان هذا شيئاً عادياً. كثيراً ما يحدث. ولكنني لم أظن ولم أتخيل أن يخونها أبي. إنك لم تعرفي أمي؟»

هزت ربيكا رأسها بالنفي، فتنهد بول واستطرد يقول:

«يا له من موقف. لا عجب إذن في أن نتحول إلى رجال آخرين»

قالت ربيكا غير مصدقة:

«أكنت تعرف؟»

«أجل. هل هناك مزيد؟»

صاحت قائلة:

«لا، لا مزيد! بول، دعنا نغير الموضوع. لقد انتهى الأمر الآن. انتهى منذ ثلاث سنوات. أمك ماتت، وأبوك على قيد الحياة. دعنا ننفض أيدينا من هذا الأمر. هل هذا ممكن؟»

«لا أستطيع أن أدع الموضوع. من الذي أخبرك به؟»

«توم. توم بريانت».

«مفهوم!»

كان الوقت بعد الظهر عندما وصلت السيارة بهما إلى منزل ربيكا. وقالت له: «لن أستطيع أن أدعوك للدخول يا بول. إنني أرغب في الاستمتاع بليلة هادئة».

«هل أراك غداً؟»

«لا أظن ذلك يا بول».

هزت رأسها في استسلام وقالت:

«حسناً. يمكنك أن تأتي لتناول الشراب معي في المساء، إذا أحببت».

«شكراً».

وبعد ثلاث أيام، أصيبت ربيكا بانفلونزا، وعزت ذلك إلى الطقس في بادىء الأمر، ولكن في الحقيقة كان الاكتئاب الذي اعتراها هو السبب، وما أن أقبل عليها مساء الثلاثاء حتى شعرت بأعراض مرضية تنتابها.

انتهت من عملها في الوقت المعتاد، وعادت إلى شقتها لتعد وجبتها المسائية. لقد تخلّصت من بول في الليلة السابقة، ولكنها لم تجد عذراً يعفيها من مقابلته. فقد أحست بقشعريرة تهزّ أوصالها. ولم تستطع أن تتحدّث هاتفياً لتعتذر عن استقباله. حتى لا يظن بها الظنون، وتركته يأتي حتى يرى الأمر بنفسه.

وصل بول التاسعة، واستقبلته ربيكا، ورأى من الدموع المنهمرة من عينيها ووجنتيها الملتهبتين، بأن مرضاً قد داهمها. صاح قائلاً:

«يا إلهي، يجب أن تلازمي الفراش. ألا تدركين ذلك؟»

«أجل، ولكنك كنت قادماً، ولم أرغب في أن اعتذر لك ثانية».

«أدرك ذلك».

ووضع يده على جبينها يتحسس حرارتها، واستطرد يقول:

«إلزمي الفراش، وسأطلب مانلي الكهل ليأتي لفحصك».

«لا، إنه مجرد برد، يحتاج إلى ملازمة الفراش... ليس الأمر خطيراً كما تتصور. هل يضايقك أن ترحل؟»

«ربيكا، ليس لدي أي دافع للبقاء، صدقيني. ولكن أفضل أن أراك في فراشك قبل أن أرحل،أين المطبخ؟ سأحضر لك زجاج ماء دافىء. وشراباً ساخناً. هل لديك أي أقراص مسكنة؟»

«بصدق، إنني أستطيع أن أدبر أمري. لا تحاول أن تطبّق معي أسلوب معاودة المرضى في فراشهم. إن لدي بطانية كهربائية، وابريقاً كهربائياً أستطيع بسهولة استعمالها».

«حسناً، سأذهب، ولكنني سأعود غداً. لا تغادري فراشك إلاّ إذا شعرت بأنك قد عوفيت تماماً».

«شكراً. يا دكتور. فيكتور!»

وعضت ربيكا شفتيها، فقد أعادت الكلمات كل شيء إلى عقلها، وإلى وجه بول كما بدا ذلك من ملامحه، ورافقته إلى الباب وانتظرت حتى رحل.

وفي صباح الأربعاء، ازدادت حالتها سوءاً، ووجدت صعوبة في التنفس، وكان من الواضح أنها تعرّضت للبرد عندما وقفت وسط الضباب ليلة السبت. وجاهدت حتى غادرت الفراش وطلبت المستشفى هاتفياً.

وصل دكتور مانلي وقام بفحصها ووجد كل جزء في جسمها معتلاً، يشكو الأوجاع وضربات الألم تنهال على رأسها، وتشعر بالدوار كلّما حاولت النهوض. وقرر أن يحملها إلى جناح العزل في المستشفى. وأمضت عشرة أيام بين الحياة والموت. فقد تحوّلت الانفلونزا إلى نزلة شعبية كما توقع دكتور مانلي، ولولا العقاقير التي تناولتها لما بقيت على قيد الحياة. ولم تعرف ربيكا ما يدور حولها، أو الوجوه التي زارتها. فقد كان شقاؤها هو الذي ينهش وعيها.

وذات صباح استيقظت، وشعرت أن الحمى قد زالت عنها، وأنها لم تعد تسبح في بحر من العرق كما اعتادت. وعندما رفعت رأسها لتنظر حولها أحسّت أن الألم قد زال أيضاً. وأن جسمها قد أصبح خفيفاً. فتناولت قليلاً من الطعام، وشعرت أنها تستعيد قوتها. وفي نهاية الأسبوع الثاني، أتى بول لرؤيتها. وأحضر معه باقة من الورد، فقالت ممرضتها:

«زهور في ديسمبر كم أنت محظوظة!»

ولم يتحدث بول مع ربيكا عن شؤونه، وإنما دار الحديث حول مرضها وبعد رحيله جاءت ممرضتها، وقالت لها:

«لم أكن أعرف أنك تعرفين بول فيكتور».

تنهدت ربيكا وقالت:

«لقد خرجت معه عدّة مرات».

رفعت الممرضة حاجبيها دهشة وقالت:

«حقاً خرجت معه حقاً؟ والآن؟»

«أظن أن الأمر قد انتهى. لماذا تسألين؟»

«إنه لا يبدو من النوع الوفي!»

«إننا مجرد صديقين».

«إذن كل شيء على ما يرام. علمت أنه أمضى سهراته مع صديقة لي عدة مرات».

رفعت ربيكا حاجبيها، ودهشت للارتياح الذي اعتراها عندما سمعت ذلك، فحتى هذه اللحظة كانت تظن أنه متورط في علاقته بها لدرجة أنه لا يستطيع الفكاك منها، ولكن حديث الممرضة أزال إحساسها بالذنب نحوه، وشعرت بالارتياح لأنها قطعت كل الخيوط التي تربطها بأسرة سانت كلير.

مضت أربعة أسابيع قبل أن يسمح لها بالعودة إلى البيت، وكان ذلك في منتصف شهر ديسمبر، حيث الأيام باردة، والشقة خاوية، وخالية من أي انسان يمكن أن تتحدّث معه، فيا عدا جارتها التي تقطن تحتها والتي جاءت وأشعلت لها النار في المدفأة. وكانت ربيكا قد أحضرت معها بعض الطعام وهي في طريق العودة، وأحست بالاسترخاء عندما رأت المقلاة فوق الموقد، وغلاية الشاي تصفر بمرح، وتمنت ألا تعود إلى المستشفى، وتساءلت هل هي صادقة في رغبتها؟ ورأت أن من الخير أن تعود. فكلّما أسرعت بالعودة، كان أفضل.

وفي منتصف المساء، وبينما هي تشاهد التليفزيون رن جرس الباب، فتنهّدت وتركت مكانها بتراخ، وكانت متعبة من مجهود إعداد الطعام، وتمنّت أن يكون الطارق جارتها ولكنها عندما فتحت الباب، رأت رجلاً غريباً يقف أمامها، فأجفلت لرؤيته وتشبثت بالباب في عصبية واضحة، وتساءلت عمن يكون، وهل

يعرف أنها تعيش وحدها. وتمنت في هذه اللحظة أن تظهر جارتها لتقف إلى جوارها.

تأملته فوجدته طويلاً، نحيلاً، متوسط العمر، يضع نظارة على عينيه. سألها:

«آنسة ليندسي؟»

«أجل... من أنت؟»

قدم لها الرجل بطاقة:

«إليك بطاقتي. لقد أرسلني السيد سانت كلير».

«السيد سانت كلير؟»

ثم تطلعت إلى الرسالة وقرأت فيها:

دانييل ف. هاليداي

مخبر خصوصي.

تطلعت إلى الرجل بدهشة ثم تحولت حيرتها إلى غضب. إذن بيير أطلق التحريات وراءها. لقد سألها في سان سوسي إن كانت تعرف هاليداي، والآن ها هي قد عرفت من هو، فحملقت في الرجل بعينين اغرورقتا بالدموع. كيف يجرؤ بيير على أن يجري تحرياته عن إنسانة يظن أنها لا تناسب ابنه؟

صاحت بغضب:

«ارحل عني، لا أريد أن أتحدث معك!»

وألقت البطاقة في وجهه، وبدأت تغلق الباب، ولكنه قال:

«آنسة ليندسي... انتظري... إنك لا تفهمين».

«اذهب بعيداً عني قبل أن استدعي رجال الشرطة لالقاء القبض عليك».

وبدفعة قوية أغلقت الباب في وجهه، وقبل أن تدير المفتاح في الثقب. سمعته يوالي القرع على الباب، ويسألها أن تفتح، ويقول لها إن لديه شيئاً عاجلاً يريد أن يفضي به إليها. وبدلاً من أن تستجيب له، دارت على عقبيها، وسارت إلى غرفة الجلوس، وجعلت صوت التليفزيون عالياً حتى يدرك أن ما يحاول أن يقوله

لها يضيع هباء!

ولما يئس الرجل، رحل، فاعادت الصوت إلى درجته المنخفضة. ولكنها اكتشفت أنها ترتعد بالغضب والشقاء. إذ كيف يجرؤ بيير على أن يفعل ذلك؟ ومم يخاف؟ وأي أسرار يريد أن يكتشفها؟ بالتأكيد هو يعرف أن بول سوف يتورط بعلاقته مع امرأة لن تستطيع أن تمنحه إلاّ القليل؟ ألا يعرف هو ذلك؟ ولم تعد هي بدورها تدرك أي شيء!

هزت كتفيها، وحاولت أن تستغرق في مشاهدة المسرحية التي يعرضها التليفزيون، ولكن الأفكار كانت تطارد رأسها. ولم تعد تعرف ما يدور حولها. فإذا كان بيير قد استخدم مخبراً خصوصياً يتحرّى عنها. فلا بد أنه الآن قد تلقى كل ما يريد معرفته، ولا بد أن يعرف كل شيء عن شيللا وصديقها بيتر فيلدمان، هذا إذا لم تكن آديل قد أخبرته بقصة محرفة. وحيث أن شيللا موضع ثقة آديل فلا بدّ أن يكون الأمر سهلاً عليها بأن يصيغا القصة بما يتلائم مع أهوائهما. وكان هذا سبباً آخر يدعوها إلى احتقارها.

نهضت ربيكا واقفة في اضطراب واضح. فلو أنها استمرت في مواصلة التفكير بهذه الطريقة. فلا شك أنها ستصاب بالجنون. فتوجهت إلى المطبخ لاعداد فنجان من القهوة. وقرّرت أن تتوجه غداً إلى رئيسة المستشفى وتسألها أن تعود إلى العمل. فالعمل وحده. والاستغراق فيه. يستطيع أن ينقذها من الجنون!

١٠ ـ وترقرقت الدموع ...

في اليوم التالي، توجهت ربيكا إلى رئيستها، وتلقت منها صدمة أخرى. كانت الرئيسة رقيقة وحنوناً، ولكنها حازمة. قالت وهي تضع مرفقيها على المكتب:

«عزيزتي ربيكا. أنت شفيت من نزلة شعبية قاسية، ولا أستطيع أن أستخدمك مرة ثانية حتى تتماثلي للشفاء تماماً. ونصيحتي لك أن تنتظري حتى يأتي العام الجديد. أنت في إجازة الآن، وتعالي لرؤيتي في آخر شهر يناير/ كانون ثاني».

جحظت عينا ربيكا غير مصدقة، وقالت:

«تقولين نهاية شهر يناير/كانون الثاني؟»

«أجل. لو كان الوقت صيفاً لاقترحت عليك أن تمضي شهراً على شاطىء البحر ثم تعودي إلينا وكلّك نشاط ولكن في مثل هذا الجو البارد القاسي، فإنني أخشى عليك من الانهيار إذا ما بذلت جهداً كبيراً. إنني لا أقصد أن أكون قاسية معك، وإنما أريد أن تكوني في تمام الصحة عند عودتك».

خرجت ربيكا من غرفة الرئيسة وهي تشعر بالتمزق، وقد تبدّدت آمالها في أن تعود إلى حياتها العادية في الوقت الحاضر على الأقل. ولاحت الأسابيع أمامها خالية من أي عمل سوى أن تعيش في دوامة التفكير. وعندما عادت إلى شقتها، انفجرت باكية، واستلقت في فراشها، وهي تحملق غائبة الوعي في سقف الغرفة وتساءلت عما إذا كانت ستعود إلى حالتها الطبيعية مرة أخرى.

وزارتها آنيت فليمنغ في المساء، وكانت صدمة لها عندما رأت مظهر صديقتها، فصاحت بها قائلة:

«لا تحزني يا ربيكا هكذا، لمجرد أنك لم تعودي إلى عملك. كنت أظن أنك ستقدرين قيمة الاجازة، وخاصة أن خروجك في الصباح في الجو البارد يضرّ صحتك».

«ولكن ماذا أفعل؟ ليست لي أسرة مثلك، ولا حتى صديق!»

«لماذا لا تأخذين إجازة؟ يمكنك أن تذهبي في رحلة إلى الخارج، ستكون مثيرة لك».

جلست ربيكا في مقعدها، وقطبت جبينها؛ إنها فكرة، وكما اقترحت آنيت ستحملها الرحلة بعيداً عن انكلترا بعض الوقت، وفي أي بلد تزوره ستكون مجرد سائحة مجهولة. سألت آنيت:

«أين أذهب؟»

«في هذا الوقت من السنة، يحسن بك أن تذهبي إلى شمال أفريقيا أو البحر الكاريبي. هل ميزانيتك تسمح بالسفر إلى هذا المكان البعيد؟»

«لم لا؟ أنا لا أخرج كثيراً، ولا أنفق من مالي إلاّ النذر اليسير على ملابسي. بالطبع أستطيع السفر».

وعندما رحلت آنيت، أراحت ربيكا ظهرها إلى المقعد، وفجأة انتابها تفكير عميق، فلو أنها سافرت إلى الكاريبي، فإن فرصة مقابلة شخص تعرفه ستكون قليلة. ولوهلة تذكرت أن توم بريانت قد أخبرها أن بيير يمتلك بيتاً في جامايكا، لذلك اتخذت قراراً بألا تضعف وتذهب إلى هناك.

وخلال الأيام القليلة التالية، جدّدت جواز سفرها، وأمضت لياليها منهمكة في دراسة أفضل الأماكن التي يمكن أن ترحل إليها، ثم بدأت تهتم بنفسها، فصففت شعرها واشترت بعض الملابس الجديدة.

وعند نهاية الأسبوع جاءتها رسالة من مكتب المحامين في لنكولن تفيدها بأنها واحدة من المستفيدين بالوصية التي تركتها الآنسة آديل مارغريت سانت كلاود!

أذهلت الأنباء ربيكا، ولم تتصوّر أن آديل ماتت هكذا سريعاً. وبرغم أنها لم تكن تحبها إلاّ أنها لم تتمنّ لها الموت. ولم تصدّق أن الطاغية المجنونة التي تسببت في شقائها تموت حقاً. وقد أخبرها الطبيب الذي يعالج آديل في فيجي بأن النوبات ستقضي عليها ذات يوم إذا تعرضت لأي انفعال شديد.

وتحدثت ربيكا إلى مكتب المحامين هاتفياً، وحدد السيد بروم الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي موعداً لمقابلتها، وعندما دخلت مكتبه وجدته شاباً، وعرفت منه بأن والده محامي الآنسة سانت كلاود، وقد عهد إليه بإتمام الأجراءات الخاصة بهذا الموضوع، وشكرته ربيكا، وانتظرت بفارغ الصبر أن ينتهي منها سريعاً. وأخيراً قال:

«كما تعرفين، الآنسة سانت كلاود تمتلك فيللا خارج سوفا بجزيرة فيجي، وأعتقد أنك عملت ذات يوم هناك كممرضة للآنسة سانت كلاود. أليس كذلك؟»

«أجل، لمدة سنتين».

«حسناً، لديّ نسخة من وصية آديل الأخيرة، وقد أوصت بترك الفيللا لك، ومبلغ كاف يمنح لك سنوياً».

وتجاهل بروم الدهشة التي ارتسمت على وجه ربيكا، واستطرد قائلاً:

«وإذا ما قررت بيع الفيللا، فإن المنحة السنوية سيتوقف صرفها لك، وتتوجه إلى جهة خيرية!»

«لا يمكن أن تكون جاداً، هل تقصد، أنها تركت الفيللا ... لي؟»

«ولم لا يا آنسة ليندسي؟ هذا واضح وضوح الشمس، ولن أدخل في تفصيلات

أخرى، وإنما ثقي بأن الفيللا أصبحت ملكاً لك».

مسحت ربيكا جبينها بيدها في اضطراب، وقالت:

«لقد ظننت... أعني... إنها عاشت في لندن فترة طويلة، وتصوّرت أنها باعتها».

«أوه، لا لم تبعها. وهناك امرأة من فيجي... على ما أعتقد. ترعى شؤون الفيللا».

صاحت قائلة:

«روزا! إنها روزا! ولكن هل قالت آديل لماذا تركت الفيللا لي؟»

«لا... يمكنك أن تذهبي الآن وتبحثي الأمر، ثم عودي غداً، أو بعد غد، وأعطيني تعليماتك».

نهضت ربيكا بعصبية، فوقعت منها حقيبتها وقفازها، والتقطتها وهي تدمدم. ثم سارت إلى الباب، وفتحه بروم بهدوء فخطت خارجاً، وتوقفت في الطريق وأدركت أنه من المستحيل أن تتخذ قرارها قبل أن تدرس كل الاحتمالات التي دفعت آديل إلى أن تقدم لها الفيللا. إن الأمر أشبه بكابوس، وإذا هي نحّت جانباً حقيقة كراهية آديل لها، فإنها تركت الفيللا، وهذا يدعوا إلى الدهشة والاستغراب، وماذا هي فاعلة لها؟

هناك حلول عديدة يمكن أن تتخذ فيها قرارها، وفي وسعها أن تعود إلى المحامي وتخبره بأنها ترفض قبول الفيللا، وأن يقوم ببيعها ويوجه المال كله إلى الجهة الخيرية، وفي وسعها أيضاً أن تحتفظ بالفيللا والمال، وأ ن تتردد عليها كلما تاقت لزيارتها، أو تفعل ما فعلته آديل، فإن أمامها سنوات طويلة. فيمكن أن تعيش بعض الوقت في انكلترا، ثم يستقر بها المقام بعد ذلك في فيجي. إنها لن تعمل، فإن المال الذي تركته آديل للانفاق على الفيللا وعليها، سيكفيها. وفي إمكانها أن تعمل عملاً خاصاً أو في مستشفى، وسوف يساعدها دكتور

مانسون في العثور على عمل، وبدء حياة جديدة.

هناك فكرة واحدة راحت تؤرقها، وهي أن بيير يعيش في انكلترا، وستكون الفرصة ضعيفة في أن تلقاه مرة أخرى. ولكن لماذا تفكر في أن تسنح لها الفرصة ثانية وهو يحتقرها؟ وحتى لو أنها التقت به، فإن هذا اللقاء ما هو إلاّ إذلال لها، ولا تظن أنها ستقف أمامه مكتوفة اليدين.

نامت بصعوبة في تلك الليلة، وأرادت أن تفضي بالأمر لشخص تثق به، ولكن أين هو هذا الشخص؟ فكرت في بول، ولكنها طردت الفكرة من رأسها، فقد بدأ يتخذ حياة جديدة له، ولا فائدة ترجى من أن تشده إليها مرة أخرى. وهناك آنيت التي تعرف قليلاً عن حياتها الماضية، ولكنها لا ترغب في أن تعترف بهذا لها.

ظلّت ربيكا حائرة في اتخاذ القرار السديد. وتساءلت هل من الحماقة أن تلقي بالمال الذي تركته لها آديل لمجرد الانتقام منها أم تقبله؟ وعندما أشرق الصباح، رأت أنها لا تستطيع أن تغير الماضي، وأنه من الغباء أن ترفض ما قدم لها، ومهما كانت دوافع آديل، فإنها لا تستطيع أن تتأكد مما ترمي إليه.

وأبلغت السيد بروم قرارها بقبول الفيللا والمال، وأنها تنوي أن تطير إلى فيجي في نهاية الأسبوع القادم. قبل حلول عيد الميلاد بثلاثة أيام، فقد رأت أن تمضيه في بيتها الجديد، وإن لم تكن قد قررت العيش هناك إلى الأبد، فهذا الأمر يحتاج منها إلى مزيد من الوقت لتتخذ فيه قرارها النهائي.

وانقلبت ربيكا لتنام على بطنها، وراحت تحفر رمال الشاطىء بأصابعها، وتستمتع بحرارة الشمس التي ألقت أشعتها على ظهرها وكتفيها. وكانت منذ قليل قد سبحت في أعماق المياه الدافئة للمحيط الهادي، وها هي الآن ترقد على شاطئها، وخصلات شعرها الحريرية قد شاعت فيها الفوضى، ولكنها لم تكترث، فليس هناك أحد يراها سوى روزا.

مضى يومان على وصول ربيكا إلى فيجي، وغداً عيد الميلاد. وكانت قد أمضت اليومين في السباحة والاسترخاء في أحضان الشمس، فلوحت بشرتها بسمرة لامعة. كانت روزا قد رحّبت بوصولها، ولم تناقش مع ربيكا أسباب ترك آديل الفيللا لها، وتركت الأمر إلى وقت آخر. أما الآن فإنهما تتبادلان الضحكات والطرائف. وذات يوم كانت ربيكا مستلقية عندما شهدت روزا قادمة نحوها وهي تحمل مغلفاً، فانتصبت بقامتها:

«ما هذا يا روزا؟»

«إنها رسالة يا آنسة، وصلت منذ دقائق قليلة، ورأيت أن أسلمها لك سريعاً فلعل بها أمراً يهمك معرفته».

ارتجفت ربيكا، وتناولت المغلف، وعرفت أنه محوّل من عنوان منزلها في لندن، فلم يكن أحد يعرف أنها رحلت عن انكلترا، سوى جارتها التي تركت لها العنوان الجديد.

عادت روزا إلى الفيللا، بينما أخذت ربيكا تفض الرسالة، ولم تتصوّر من يكون الشخص الذي كتب إليها، ولكنها أبصرت في نهاية الخطاب اسم شيللا ستيفنز. وبدأت تقرأ:

عزيزتي ربيكا،

في الوقت الذي تقرأين فيه رسالتي، ستسمعين أنك ورثت فيللا آديل، ولكنني كصديقة، أرى من واجبي إبلاغك بأن آديل لم تترك لك شيئاً. بل على العكس ماتت بدون أن تكتب وصية.

ارتجفت أصابع ربيكا، ولكنها حاولت أن تتماسك، ثم واصلت القراءة.

في الحقيقة، إن الفيللا لم تكن تخصها، وإنما هي ملك بيير سانت كلير، فقد اشتراها منها عقب عودتها إلى انكلترا، وهو صاحبها منذ ذلك الحين. أما سبب أنها آلت إليك، فهو أنّ بيير، لسبب ما، يشعر بالذنب للأسلوب الذي عاملك به.

وقد اختار هذا الحل لراحة ضميره. وربما أحس أن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تغادرين بها الوطن، وتخرجين من حياته، وتفكيره. وفي أية حال فبوصفي صديقة قديمة لك، فكرت أن أضع الحقيقة كاملة بين يديك.

المخلصة

شيللا

ألقت ربيكا الرسالة جانباً، وراحت تحدق في البحر بلا وعي.

شيللا تعرف تماماً أن ربيكا لن تقبل الفيللا هدية من بيير، مهما كانت دوافعه. وكان من المفروض أن تصلها الرسالة قبل رحيلها حتى لا تغادر لندن، ولكن نظراً للضغط الشديد في الأيام التي تسبق عيد الميلاد، فإن الرسالة قد تأخر وصولها، وهكذا وجدت ربيكا نفسها قد أنفقت كل مالها للحضور إلى فيجي، وكانت هي في غنى عن هذه الرحلة باهظة التكاليف.

نهضت واقفة، وسارت في طريقها حتى دخلت الفيللا، وراحت تقول لنفسها إنها لطمة قاسية وجهتها شيللا لها. ولا عجب، فإن الفتاة لم تغفر لها أبداً أنها قد حوّلت قلب بيتر فيلدمان عنها. أما عن بيير وأسباب إعطائه الفيللا لها، فإنها لا تفهمها بتاتاً. هذا إذا لم يكن يرغب في أن يزيحها من طريقه كما قالت شيللا في رسالتها.

ارتدت سروالاً من القطن، وبلوزة بلا أكمام، ثم توجهت إلى غرفة الجلوس، وألقت بجسمها على مقعد، وراحت تقرأ الرسالة ثانية. وعندما أقبلت روزا، ناولتها إياها وقالت لها:

«اقرأيها يا روزا»

مسحت روزا يديها في مئزرها، ثم التقطت الرسالة، وبدأت تقرأ في صمت. ولما انتهت منها رفعت وجهها والحيرة بادية على ملامحها، وسألت:

«ماذا يعني هذا؟»

«يعني أن الفيللا ليست ملكاً لي، وإنما هي ملك السيد بيير سانت كلير».

«تقصدين... تقصدين أنك لن تعيشي هنا؟»

«طبعاً... سأعود إلى لندن بأسرع ما يمكن!»

قالت روزا وقد أصيبت بخيبة أمل:

«آنسة ليندسي... لماذا تسافرين والفيللا قد أعطيت لك. هل يهم من يكون الشخص الذي أعطاك إياها؟»

«لا أستطيع أن أقبل هدية... من، من السيد سانت كلير!»

«هذا شيء رهيب. غداً عيد الميلاد، ولا يمكن أن ترحلي في يوم العيد».

جمعت ربيكا شتات فكرها، قد نسيت أن غداً هو يوم عيد الميلاد وعليها أن تنتظر حتى تنتهي إجازة البنك، وكان غريباً أن تشعر بالارتياح عندما تبينت أن البنك مغلق، فقد شعرت أن ترك الفيللا أصبح أمراً بغيضاً إلى قلبها. وأمضت الليلة تبكي، وبللت وسادتها بالدموع، ولم تستطع أن تنكر إلى أي مدى تحطم قلبها.

وفي صباح عيد الميلاد، قدّمت روزا هدية لربيكا، وعندما فتحتها وجدت قرطاً مصنوعاً من الودع وجميل التصميم، وأهدتها ربيكا بلوزة أحضرتها لها من انكلترا، وفي العشاء أعدت روزا ديكاً لكي تدخل السرور إلى قلب ربيكا التي أصرت أن تشاركها الطعام احتفالاً بالعيد. وبعد ذلك توجهت ربيكا إلى الشاطىء، واستلقت فوق الرمال الدافئة وتساءلت ماذا ستفعل عندما تعود إلى لندن؟ إنها لا تستطيع العودة إلى العمل، وفي نفس الوقت أنفقت كل أموالها في رحلتها إلى فيجي. ورأت أن التصرف المعقول هو أن تظل في الفيللا لمدة أسبوعين وكأنها تمضي إجازة حقيقية. ولكنها وجدت أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك، فهي لا تقبل أي شيء من بيير.. لا نقوده... ولا شفقته!

كان الهدوء يسود المكان، إلا من بعض أصوات الموسيقى التي كانت تتردد

هناك، وأدركت أن فريقاً من الناس ممن يسكنون إحدى الفيللات يقيمون حفلاً يتبادلون فيه النخب والحديث والضحكات والحب. وترقرقت الدموع في عينيها ولكنها لن تستسلم لها، ولن تضعف أمام الشفقة على نفسها، ولن تكون حمقاء مرة أخرى.

وتناهى إلى مسمعها وقع خطوات فوق الحصى، فانتصبت بقامتها، فقد كان الظلام يحيط بها، وحاولت أن تهدىء من روع نفسها، وأنها مخطئة في ظنونها، ولكن شعورها كان صادقاً، فعندما جالت ببصرها حولها، رأت رجلاً يخرج من وراء الأشجار ويسير نحوها، وقفزت واقفة، ولكنها ثبتت في مكانها عندما ألقى القمر بكامل ضيائه على وجهه، فكشف عن جاذبية بيير سانت كلير، وفي الحال أدركت قلة الثياب التي ترتديها، وشعرها الأشعث، وكما حدث من قبل... رآها في وضع غير لائق!

تمتم قائلاً:

«مرحباً ربيكا. إنني آسف أن الوقت متأخر... هل يمكن أن نتوجه إلى الفيللا؟»

قالت بخشونة:

«كيف لي أن أدعوك إلى الفيللا وأنت تعرف أنها ملك لك... وانني لا أملك أن أردك عنها؟»

«إذن... أنت تعرفين؟»

تحولت ربيكا لتسير نحو الفيللا وهي تقول:

«أجل... أعرف».

وحاولت أن يبدو صوتها هادئاً وهي تستطرد قائلة:

«اسمح لي... أن أذهب لأبدل ثيابي».

قاطعها قائلاً:

«دقيقة من فضلك».

أطبقت أصابعه القوية على ذراعها، وأدار جسمها حتى واجهته، فرأت الغضب بادياً على وجهه، وملامحه صارمة، فظنت أنه يريد أن يصب انتقاماً فوق رأسها، قال بقسوة:

«أردت أن أتحدّث إليك حديث إنسان متحضر، بعيداً عن سمع روزا وبصرها، ولكن حينما بدأت تتكلمين معي بهذا الأسلوب، فقدت صبري معك».

سألته وهي تبذل جهداً كبيراً في ألاّ يبدو الاضطراب عليها:

«أخبرني، لماذا أتيت إلى هنا؟ هل وافاك مخبرك الخصوصي بتقرير عن أفعال رهيبة ارتكبتها؟ أم أنك غيّرت رأيك في أن تمنحني الفيللا؟ لا داعي لأن تقلق. أنا لن أمكث هنا. أفضل أن أحتفظ باستقلالي، ولا أقبل مواقف الاحسان».

«لماذا تفعلين هذا؟ لماذ تتكلمين هكذا كأنك تكرهينني؟ أنا أعرف أنك تحبينني!»

حاولت ربيكا أن تتخلّص من قبضته، وقالت له:

«كيف عرفت ذلك؟ هل أخبرك هاليداي؟»

«ربيكا... اسمعيني».

«لا! اسمعني أنت! إنني لا أريد فيللتك، أو إحسانك، أو أي شيء يمت لك بصلة، هل تفهم؟»

حدّق بيير في وجهها لحظة، وفجأة أمسك بها، وقاومته ربيكا في بادىء الأمر، ولكن حصون دفاعها تحطمت أمام ضغط ذراعيه. وهي تعرف أن العاطفة قد تكون أبلغ من الكلمات أحياناً، وليس من السهل عليها أن تتحدّى سيطرته... وسيادته. واستمرت بين ذراعيه فترة طويلة، وعندما رفع رأسه، بدأت أصابعه تعبث بشعرها، فلم تحاول أن تمنعه. ولما رأى استسلامها له انزلقت يده تطبق على رسغها النحيل، وقال لها:

«هل رأيت؟ أنك لا تكرهينني يا ربيكا!»

سحبت ربيكا نفسها من بين ذراعيه، وشعرت بالاذلال لفرض قوته عليها،

ولكنه عاد وجذبها نحوه، وقال لها:

«إنني أريدك يا ربيكا... وهذا سبب مجيئي إلى هنا».

«لماذا أهديتني الفيللا؟ لماذ تركتني أعتقد أنها ملكي... وعندما...»

أجاب بيير:

«إنها ملكك. إن عقد التمليك قد تمّ منذ عدة أسابيع مضت!»

نظرت إليه وسألته في عجلة:

«لماذ؟ لماذا؟ لماذا تركتني أظن أن آديل قد أوصت بها لي؟»

«كانت هذه هي الطريقة الوحيد التي يمكنني أن أعطيك بها الفيللا. أردت أن تأتي إلى هنا لتستردي صحتك».

التفتت نحوه وقالت:

«ولكنني عرفت، عندما اكتشفت...»

ضاقت عينا بيير وقال مقاطعاً كلامها:

«لا يمكنك اكتشاف الأمر إلاّ بتدخل أحدهم. قلت لي انك لن تقبلي الفيللا. كيف لي أن أؤكد لك بأنه ليست لدي أية دوافع خفية؟ وخاصة أنني جئت إلى هنا، وغضبت منك ثم بثثتك حبي. أنا أعلم أنها ليست الطريقة التي تقنعك بأن دوافعي هي حبي لك وغيرتي عليك. هيا بنا نذهب إلى الفيللا حتى لا تصابي بالبرد، وسنواصل حديثنا ونحن نحتسي بعض الشراب إذا عبرت لي عن كرم ضيافتك».

«وكيف أستطيع أن أرفض طلبك؟»

وأسرعت ربيكا تسبقه إلى الفيللا، ودخلت غرفتها، وارتدت ثوباً قطنياً يبرز جمال بشرتها الذهبية. وحينما دخلت غرفة الجلوس، وجدته واقفاً بجوار النافذة، فأعدّت له شراباً، وبعد أن ناولته إياه، قال لها بهدوء:

«أريد أن أخبرك بأن الممرضة ستيفنز فصلت من وظيفتها قبل وفاة آديل

بأسبوع».

تقلّصت أصابع يدي ربيكا، وأحجمت عن أ ن تصب لنفسها شراباً حتى لا يكتشف وقع المفاجأة عليها. وقالت له بلا اكتراث:

«مفهوم!»

سألها بدهشة:

«مفهوم ماذا؟ ألا تحبين معرفة السبب؟»

«إذا أحببت أن تخبرني به».

«حدث عندما كنت مريضاً أن تصوّرت شيللا وهي تضمد جرحي أنها...كيف أصوغ الكلمات؟ أجل... إنها مفتونة بي. ولا أدري كيف فتنتها؟ ومع ذلك... كان علي أن أصدها. فأنا أحببت امرأة واحدة... ولم تكن شيللا ستيفنز هي تلك المرأة».

«ما زلت لا أرى أن هذا الموضوع له صلة بأديل».

«ألم تدركي الصلة بعد؟ ربما لا أكون واضحاً في كلامي، ولكن يبدو أن الأنسة ستيفنز قد قبلت الوظيفة لأسباب تختلف عما توقّعناه، فحينما أحسّت أنها فشلت في أن تفوز بي، راحت تتحين الفرصة لكي تثير اليأس في نفس أديل التي أصبحت لا تحتمل النوبات التي تصيبها، حتى دهمتها نوبة حادة. لم أجد أمامي سبيلاً إلاّ أن أطرد الأنسة ستيفنز في الحال، وبرغم أننا أستطعنا استخدام ممرضة أخرى، إلاّ أن الانفعال كان شديد الوقع على أديل ولم تحتمل الاصابة بنوبة أخرى فأودت بحياتها».

صمت بيير قليلاً، وأدركت ربيكا خلال صمته أن شيللا لم تبعث لها بالرسالة إلاّ بهدف أن تحطم سعادتها. وتطلّعت إليه فرأته يذرع الغرفة في قلق، ثم استدار ليقول:

«كان من الطبيعي أن ألقي اللوم على نفسي، وأقول لو لم أكن قاسياً على الفتاة

التي عاملت آديل برفق، لو لم أتسبب في رحيلك عن فيجي لتغير الموقف تماماً. وكنت قد تحدثت إلى طبيب آديل. فأكد لي أن صحتها تدهورت منذ عودتها إلى انكلترا، ولا يملك أحد أن يفعل لها شيئاً».

«ولماذا عادت أديل إلى انكلترا؟ هل طلبت إليها أن تعود؟»

«بالطبع لا، وإنما هي التي أصرّت على العودة لحضور جنازة جنيفر، وتمسكت بالاقامة في البيت، وعندئذ شعرت بحماقتي بالسماح لها بالحضور».

«يبدو أنها كانت من النوع الذي يسعده أن يمزق سعادة الناس».

«سعادتك على سبيل المثال؟»

«إن شؤوني ليست مهمة».

«ولكنها تهمني أنا».

دفعت ربيكا شعرها إلى الوراء، وقالت:

«كيف تقول ذلك، وأنت قد نسيت وجودي، منذ رحلت عن فيجي، إلى اليوم الذي قمت أنا فيه بزيارة سان سوسي مع بول».

«هذا ليس صحيحاً. ألم أسألك وأنت في سان سوسي، هل تعرفين شيئاً عن هاليداي؟»

قلبت ربيكا شفتيها وقالت:

«مخبرك الخصوصي؟»

توجه بيير نحوها، وجذبها نحوه حتى وقفت أمامه تماماً. وأمسكت يداه كتفيها بقسوة، وقال لها بخشونة:

«حقاً. يبدو أنك لا تقبلين أي تفسير بدون أن تعارضيه، ولذلك يجب أن أكون صريحاً وواضحاً معك وأخبرك بأنني ما جئت إلى هنا إلاّ ودوافعي كلها شريفة. أنا لست وحشاً فتتصورين أنه ما دام قد فشل في أن ينالك بطريقة ما، ولكن عندما رحلت إلى انكلترا وأنت متمسكة بمبادئك الأخلاقية، كرهت تصرفك،

ولم لا؟ لأنني أحببتك... لأنني أريدك؟ وكان إثمي الكبير هو أنني لم أستطع الزواج منك، أما إثمي الصغير فهو أن جنيفر لم تكن زوجة لي يوماً ما».

أشاحت بوجهها جانباً وصاحت:

«أوه، بيير، اتركني».

استمر بيير ممسكاً بها وهو يقول:

«أوه... بيير! أهذا كل ما يمكن أن تقوليه! إنني أريدك أن تعرفي إلى أي مدى تسبّبت في إيلامي. ولهذا السبب لم أتبعك إلى انكلترا، لاجبرك على الخضوع لي، وإنما أغرقت نفسي في عملي، ولكنه لم يكن علاجاً شافياً لي، وكان توم بريانت يدرك ذلك ويمكنك أن تسأليه إذا لم تصدقي كلامي... لقد نجحت في تحطيمي!»

أغلق عينيه لمدة وجيزة ثم استطرد يقول:

«وكان عليّ أن أعرف بمكانك، وماذا تعملين، لذلك استخدمت هاليداي ليتحرّى أخبارك، وخلال تحرياته ذهب إلى المستشفى حيث كانت تعمل الممرضة ستيفنز، ويبدو أنها استغلته كما استغلها هو. أما كيف حدث ذلك، فدعيني أروي لك. فحينما ماتت جنيفر، وجاءت آديل إلى انكلترا، نشرنا اعلاناً نطلب ممرضة، وفي الحال تقدّمت شيللا، وكانت قصة هاليداي، ثم حدثت أمور عديدة بعد ذلك. لما ماتت زوجتي، كان من المستحيل أن أبحث عنك، وعندما أراد بول أن يلتحق بمهنة الطب، رتبت الأمور لكي ينضم إلى هيئة أساتذة سانت بارثولوميو، واختلقت سبباً لكي أشترك في شؤونهم، ولا يمكنك أن تتصوري مبلغ الفزع الذي انتابني عندما اكتشفت أن ابني قد تورط في علاقة مع ممرضة تدعى ربيكا ليندسي».

وضعت ربيكا راحتها على جبينها، وقالت:

«إذن كنت تعرف طوال الوقت!»

«طبعاً... عرفت كل شيء عنك، وكان هدفي أن أقدم لك حياتي عندما تأتي

اللحظة المناسبة، ولسوء الحظ شاءت الظروف أن تحول دون تحقيق ذلك، وبعد وفاة آديل استطعت أن أجد الوسيلة التي تمكنني من مساعدتك، ومساعدة نفسي. كانت الفيللا ملكاً لي، اشتريتها من آديل بعد أن عادت من فيجي، وأردت أن أعطيها لك، ولم أتصور أنني أستطيع أن أبيعها لشخص غريب، وقد شهدت لقاءنا. أردت أن تعيشي فيها حتى أستطيع زيارتك ورؤيتك، وأكشف لك عن أن نواياي تجاهك لم يكن القصد منها أ ن تكوني عشيقتي».

«ولكن...»

«لا تقاطعيني... أنت ستمضين هنا عدة أسابيع حتى تستعيدي صحتك، ويمكنني لقاؤك. وبالأمس كنت في كانبرا وتلقيت رسالة عاجلة بعث بها لي توم من لندن وقال إنه اكتشف بطريق المصادفة أن شيللا ستيفنز قد علمت من بول بعزمي على إهدائك الفيللا، وأنا أعرف نواياها جيداً. وتوقعت أن تحاول من جانبها أن تعكّر صفو حياتك، كما فعلت حينما حاولت أن تفسد العلاقة بيني وبينك، فأخبرتني بأنك كنت السبب في تحول خطيبها بيتر فيلدمان عنها».

فزعت ربيكا وقالت:

«ولكن لم تكن لي به أي علاقة؟»

قاطعها بيير وقال مبتسماً:

«أعرف ذلك. إنني أدرك تماماً أنك تعيشين في سبات عميق عندما يتطرق الحديث إلى موضوع ممارسة الحب».

أشاحت بوجهها خجلاً، ولكنه جذبها نحوه، وتمتم قائلاً:

«هل عرفت الآن سبب وجودي هنا؟ إنني أعرف أنك لن تسمحي لنفسك بقبول شيء فاخر مني، وكان لزاماً علي أن أراك وأخبرك».

ومال بجبينه نحو جبينها، وهو مدرك لشدة اضطرابها وهي ترتجف كالورقة بين

يديه، وهمست قائلة بدون أن تجد رباطاً لأفكارها:

«والآن؟»

قال بهدوء:

«أنت صاحبة الأمر... وضعت كل أوراقي على المائدة. هل ترغبين في أن تأخذينها كلها؟»

«أنت قلت إن بول قد تحدّث إلى شيللا. ماذا يعرف عنا؟»

«كل شيء... كان يجب عليّ أن أخبره».

«أخبرتك ذات مرة بأنني لا أستطيع أن أحب بدون أي ضمان. فهل هذا سبب تقديمك الفيللا لي».

تنهد بيير وقال:

«الضمان الوحيد هو الحب ذاته، وبدونه لا يوجد أي ضمان آخر».

«إنني راحلة غداً»

سألها وهو يراقبها عن كثب؟»

«هل أنت حقاً عازمة على الرحيل؟»

«ظننت أنك ستشعر بالأسف لرحيلي».

«أسف؟ أنا أحبك... أنا محتاج لك. صدقيني أنا لم أحب امرأة أخرى... معك أشعر بأنني عدت صغيراً ثانية. أنت الانسان الوحيد الذي أهتم به في عالمي المجنون، وأريد أن تكوني زوجة لي... تحمل اسمي... وثروتي... وتشاركني حياتي بحلوها ومرها».

التفّت ذراعاها حول عنقه، وراحت تمتم فرحة.

«أنت تعرف أنني أحبك. إذا استطعت أن تنسى كل الأشياء التي قلتها لك، فإنني لا أطلب أي شيء آخر منك. لكنك خضت زيجة مدمرة، ولا أريد أن تخاطر مرة أخرى».

قال لها:

«ليس هناك مخاطرة بالزواج منك، فأنا بدونك لا أعدو أن أكون نصف رجل، وقوقعة بلا قلب...أو روح».

«وماذا عن بول؟»

«سيعتاد على الموقف. إنه ما زال شاباً، الدنيا أمامه. أم نحن فليس لدينا أي وقت نضيعه. هل تتزوجينني؟ أنا واثق ي أستطيع أن أرتب عقد القران بصورة ما، ثم نقيم بعد ذلك حفلاً لزواجنا يشهده العالم كله. فأنا لا أستطيع أن أحتمل فترة خطوبة طويلة.

وراحت ربيكا تدفن وجهها في عنقه، وتوالت الأفكار على عقلها، وتمثلت أمام عينيها مشروعات كثيرة. وفكرت بأسف فيا فعلته شيللا معها، ومحاولتها الفاشلة لافساد حياتها، وودت أن تقدم لها الشكر، لأنه لولا تدخلها، لظلت أسابيع طويلة هائمة بدون أن تنعم سريعاً بالجنة بين ذراعي بيير.